فريق
متميزون
E-BOOK

WHEN THE SUN GOES DOWN

حين تغرب الشمس

فريد الخمال

قصص

كتوبيا
KOTOPIA
PUBLISHING
HOUSE

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

حين تغرب الشمس

قصص..

الكاتب: فريد الخمال

إهداء

إلى من أضاءوا الدرب حين أظلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداء خاص

إلى من جعل الشباب يقرؤون «أحمد خالد توفيق».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الانتظار ملازم للحياة لا بديل لها، تنتظر على محطة القطار، وتركب في الوقت نفسه قطارات تحملك شرقا وغرباً وإلى الشمال وإلى الجنوب. تخلف أطفالاً وتكبرهم، تتعلم وتنتقل إلى الوظيفة، تعشق أو تدفن موتاك. تعيد بناء بيت تهدم على رأسك أو تعمر بيتاً جديداً. تأخذك ألف تفصيلة وأنت وهذا هو العجيب، واقف على المحطة تنتظر.. ماذا تنتظر؟

رضوى عاشور

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفرصة

دقت الساعة معلنة الثالثة مساء، أسرعت في ارتداء ملابسها، جمعت أوراقها، وقبلت يد أمها المقعدة على كرسي متحرك، طالبة منها الدعاء بالتوفيق. ثم نزلت درجات السلم مسرعة، كي لا تتأخر عن موعدها.

انطلقت كالفراشة تشق طريقها، كانت تنتظر هذا العمل على أحر من الجمر بعدما ترددت على الكثير من المدارس تنشر سيرتها الشخصية؛ فقد يئست من الساعات الإضافية لأبناء الحي بثمن بخس لا يكفي لسد حاجياتها.

بشاربه الكث، وعظام وجهه البارزة كأنه عائد لتوه من المقبرة، توقف بسيارته في الشارع الرئيس. لمحته فتملكها البهجة؛ فوجود سيارة أجرة في هذا الوقت من اليوم الذي تقل فيه المواصلات أمر يدعو للفرح. أحست أن اليوم يومُ سعدها، وأن تلك الفرصة فرصةٌ ثمينة لا يجب تضييعها، اقتحمت السيارة دون أن تستأذن؛ وبادرته بنبرة أنثوية قائلة:

مدرسة الأمل، شارع الأنوار، لو سمحت.

رفع عينيه الحمراوين، ونظر إليها بنظرة متفحصة عبر المرآة، ولم ينبس ببنت شفة، ثم شغل محرك السيارة. لم يظن أن الأمور ستسير على ما يرام من البداية، أما هي فانطلقت تردد كلماتها بصوت يصل إلى مسامع السائق.

سناء الرحيمي، ٢٦ سنة، حاصلة على الإجازة في الأدب العربي، وشهادة الماستر في الأدب النثري، وشواهد في مجالات أخرى.. وسأكون سعيدة بالعمل ضمن مجموعتكم المدرسية.

نظر إليها نظرة نكراء وغمغم. وهي مستمرة في تكرار الكلمات نفسها غير منتبهة لنظراته.

سناء الرحيمي...

كانت موشكة أن توقظ ذكرياته، ثم تبسم ابتسامة بلهاء، وقال:

لو كانت الدراسة مجدية، لكنتُ في عمل غير هذا.. عالم أخرق، والناس لا يعرفون مصلحتهم إلا بعد فوات الأوان.

يسير ببطء كما لو أنه يبحث عن شخص آخر، انتبهت لسيره البطيء، تمنت لو أنها تحمل السيارة وتمضي بها إلى العنوان المطلوب، المسافة طويلة ولا تحب أن تتأخر عن مواعيد كهاته، فأرباب العمل يتصيدون أي هفوة لرفض أي متقدم. فرحت كثيرا بعد اتصالهم بها وإخبارها بموعد إجراء المقابلة الشفهية، فهي المعيل الوحيد لأمها، بعدما تنصل الأب من مسؤوليته -أو بمعنى أدق من رجولته- قبل مدة ليست باليسيرة.

رنّ الهاتف، ردّ مسرعا بصوت خافض:

حاضر، حاضر، لن أتأخر.

زاد من سرعة السيارة، وبضغطة زر أحكم أبوابها. لم تسمع صوت الإحكام، تبسمت واستمرت في ترديد عبارتها:

سناء الرحيمي...

غطى أنفه وفمه، واستدار، ثم: تشش، تشش....

حينما حاولت أن تستيقظ من غفوتها، كانت السيارة تأخذ منحى آخر.

بيدين مكبلتين، ورأس يعج بالصداع، تحاول أن تسترجع وعيها لكن دون جدوى. ثم غفت مجددا. رنّ الهاتف مرة أخرى، فردّ بنفس النبرة:

كل شيء على ما يرام، شارفنا على الوصول.

كانت التجهيزات الكبرى استكملت ترتيبها. سرير يتوسط غرفة كبيرة محاطا بالأضواء البيضاء، والأم مستلقية على السرير لا تعرف تفاصيل ما يجري. بدأ الطبيب الذي امتلأ رأسه شيبا بتخدير جسدها. اجتمع وَلَداها -اللذان بخلا بكِلْيَةٍ تردّ عافيتها- خارج الغرفة، مارس كل واحد منهما أنانيته، واتفق ابنها البكر مع أحد الأطباء بعدما نحل جسدها وضمر؛ لوقف مسلسل معاناة أمهما. فقررا إيجاد متطوع، أو بمعنى أدق ضحية يسلبانه كليته.

لم يتردد الطبيب وأعطى تعليماته لفريقه أن مكان إجراء العملية سيكون في إحدى فيلات العائلة على أطراف المدينة، كي تتم في سرية تامة. فليست المرة الأولى لعمل كهذا. بحث الابن عن حل يرضيه ويرضي شقيقه أيضا، بما أن المال موجود فلا مانع من استعماله!

بعينين غائرتين وعقل سابح في مستقبل زاهر، تشق السيارة طريقها الإسمنتي. رمق لوحة على يمين الطريق، تشير إلى أنه لم يبق إلا خمس كيلومترات، هذه هي العملية الرابعة والأخيرة؛ فقد جمع مالاً يُمَكّنه من مغادرة الوطن.

خدّر الطبيب الأمَّ، والتفت حولها ممرضتان بجسمهما الرشيق. أمسك أدواته، وضع أنبوب المخدر على فمها، وبيدين ثابتتين أخذ المبضع، وبدأ العملية.

لا زالت سناء تحت تأثير المخدر. سلمها للممرضتين، وانتظر قليلا لاستكمال المبلغ المتّفق عليه. أخذ يربت على ضميره الذي استيقظ فجأة بكلمات في محاولة منه لتبرير فعلته؛ ستسير الأمور بشكل عادي، ستستعيد عافيتها كسابقاتها، لن تتوقف حياتها إذا تطوعت بإحدى كليتيها.

علت وجهه ابتسامة ماكرة، وهمّ بالرجوع إلى السيارة، حتى سمع جلبة تعُمُّ المكان، لم يبالِ وهرول إلى سيارته وأخذ يشق طريقه.

اضطربت الممرضتان حين جحظت عينا الطبيب، وتوقفت يداه عن الحركة كأنهما قد شلتا، ولاحظتا أن المبضع قد تلون باللون الأحمر القاتم، توقف تنفس المريضة، وشحب لون الطبيب، فعمَّت الفوضى المكان، عندما رأى وجه ابنته سناء، التي تركها بعدما طلق أمها قبل خمس عشرة سنة، ولم يرها من وقتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليلة بطعم البنفسج

أنهى وجبة العشاء، ثم أشعل لفافة الحشيش الثالثة. رنّ الهاتف يستغيث بمن يجيب، مدّ يده بشكل روتيني، مسح على وجهه، وضغط على الزر، فانفتح الخط مصدرا صوتا شبابيا:

سيد زياد، كيف حالك؟ اشتقتَ لنا صحيح؟ سنلتقي اليوم، وسنصبح أصدقاء أعزاء، سنأتي إلى شقتك. خاطبه وفي نبرته فرحة رجل منتصر.

اللفافة الثالثة تحرق نفسها مرسلة سحابة دخان إلى سماء الغرفة. مرت نصف ساعة، ما بين استيعاب المكالمة، ورنين الهاتف. طُرق الباب بطرقات منتظمة، نهض يتهادى صوب الباب، فتحه وعاد إلى مكانه بنفس الطريقة. دلف شخصان وصفقا الباب من ورائهما، كانا مفتولي العضلات، بنفس الهيئة والطول، جلسا على المنضدة، وطفقا يجولان ببصرهما في أرجاء المنزل.

تحدث صاحب قميص بنفسجي، وقبّعة رمادية:

كنا نعلم أنك لن تخيِّب ظننا، فمن خلال تتبعك ومعرفة وضعيتك، علمنا أن قرارنا صائب، غير أن هناك نوعا من الاختلاف بين الوصف الذي تلقيناه عنك، وبين ما أنت عليه الآن. مرور شهرين كانا كفيلين بنمو لحية كثيفة، واستعادة بعض من عافيتك. كل هذا غير مهم، جيد أننا نتعارف الآن في ظروف أخوية. وأتبعها بضحكة ساخرة، بعدما كان يتكلم بجدية.

لا تزال اللفافة تنفث دخانها الرمادي الغامق، ولم ينطق زياد بشيء، مكتفيا بالمشاهدة. لم يدعه الرجل يسترسل في خاطره، وواصل حديثه:

إن تعاملت مع هذه الليلة، بنفس سلاسة تعاملك هذا الشهر، فسيمر كل شيء على ما يرام، وإن أبديت مقاومة وشجاعة، لن أخبرك بما ستؤول إليه الأوضاع.

ظلّت ملامح زياد متجمدة، لم تتحرك، محافظة على سيماء الحيرة والبحث عن خيط يربط ما يحدث في الغرفة الصغيرة بالمكالمة الأخيرة، التي لا زال حتى الساعة لم يعرف أي باعث دفعه للرد عليها، ثم التزامه الصمت طوال المحادثة، بل لم يستوعب حتى قيامه من مكانه وفتحه الباب بطريقة كأنه كان ينتظر ضيفا محبوبا. ظنَّ أن الحشيش لعب برأسه، فأخذ يفتح عينيه ويغلقهما. فجأة تذكر ما جرى له مع الحشيش حينما دخن أول مرة؛ رأى عمارتين تهويان على رأسه.

لم يدر لماذا تذكر هذه القصة في هذه الليلة العجيبة التي تشبه ما يقع في الأفلام، رغم أنه مرّ عليها ما يقارب عشر سنوات. شابان بنفس الهيئة واللباس، وملامح جامدة مع نظرة تثير الرهبة، وثلاجة يدوية تثير الفضول! أيُّ عقل سيستوعب ما يحدث؟!

الاتصال بعد منتصف الليل، الحشيش الجديد، الشخصان الغريبان، والثلاجة الصغيرة، أمور لا رابط بينها، وخطاب لا يظن أنه معنيٌّ به. ما بين الدهشة الملقية بسطوتها عليه والجو الغريب المخيِّم على المكان، وصل إلى مسامعه وقع خطوات خفيفة على السُلم. وسط هذا الخليط نطق صاحب قميص أسود، لم ينبس ببنت شفة منذ ولوجه حتى حسب أنه أخرس. خرجت الحروف من فمه مصحوبة بكمية كبيرة من الصرامة:

ظننتَ أن المال يُعطى دون مقابل! أخطأت التقدير يا حبيبي، لا شيء بلا مقابل، حتى الهواء الذي تستنشقه تدفع حقه بطريقة ما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢)

أكملتُ للتو قراءة قصة بعنوان «الفرصة» ضمن مجلة عربية، أستغرب كيف أن الكاتب طاوعته نفسه إرسال مشاركته لهذه المجلة، وكيف تم قبولها؛ كمية من الفنتازيا وكأننا انتهينا من القصص الواقعية! كتب أن إحداهن كانت ضحية لعصابة متخصصة في نقل الأعضاء، وتوفيت على يد أبيها. أتذكر موضوع القصة فأشعر بنوبة من الضحك تجتاحني. جيد أني تركت المجلة في المنزل، ولم أتعب نفسي حملها معي خارجه، وإلا صرت أضحوكة بين أصدقائي بقراءتي أدب الفنتازيا.

بخطوات واثقة اخترقت الشارع الصامت الخالي من المارة، لفت انتباهي شعاع الشمس على شيء ملقى على الأرض يعكس أشعتها، حسبته قطع زجاج مكسور فاقتربت قصد إبعاده كي لا يتأذى به أحد، انتبهت بعدها أنه هاتف ذكي! تلفَّتُّ يمينا ويسارا فلم يظهر لي أحد في الشارع، دسسته في جيبي وغيرت مساري. فكرت في أن أنتظر قليلا، عسى أن يظهر صاحبه، وسرعان ما أزلت الفكرة من ذهني، وهممت راجعا إلى شقتي بمشية متسارعة. أخرجت الهاتف من جيبي، تفحصته فلم يظهر عليه أدنى ضرر، وضغطت زر التشغيل. ما إن انفتح حتى انفتح معه فمي مصدرا ضحكة مدوية فاضت وأثلجت الصدر. توقعتُ أن الأغبياء قد انقرضوا، واليوم أقف على خطأ توقعي. في القرن الواحد والعشرين، ولا زال هناك من يترك هاتفه والشريحة بلا قن سري؟ جاء في طبق من ذهب، وكأنه أُرسل إلي خصيصا. فرصة مواتية كي أتخلص من خردتي أو أبيعه لأحصل على بعض المال. ما إن ظهرت الشاشة الرئيسة حتى تهاطلت الرسائل، دفعني الفضول لقراءة الرسائل الواردة ومعرفة محتواها، واندهشت من رقم واحد أرسل عشرين رسالة بنفس المضمون: «لقد أرسلت المبلغ الذي طلبته، أما بالنسبة لهويتك، لن يسألوك عنها، فقط أعط الرقم السري ٩٤١٤ وستحصل على المبلغ المتفق عليه».

تحققت من جميع الرسائل، فتأكدت من تطابقها. أطلقت ضحكة أكبر من التي سبقتها، وقاطع صوتي هذه المرة رنين رسالة جديدة، فتحتها فوجدتها بنفس المضمون، نظرت إلى الساعة، تشير إلى الثالثة والنصف بعد الزوال، خرجت مهرولا من البيت قاصدا وكالة للخدمات.

سنغلق الشباك بعد خمس دقائق. هكذا تحدثت رباب -العاملة في الوكالة- والبسمة تغطي محياها.

لا زالت محافظة على المسحة الطفولية، كما لو أنها خرجت للتو من المدرسة. طلبت منها استقبال الحوالة ومددت إليها الهاتف، بعدما طلبت مني الرقم السري.. وسألتني بنفس النبرة الأولى المفعمة بالأنوثة:

هل ستخرج الحوالة كاملة؟ أم ستحتفظ بمبلغ معين؟

لا، لا، أُفضِّل أن أحتفظ به في المنزل. أجبتها وأنا أسارع الكلمات.

كما تأمر.

عدّت الأوراق النقدية، وسلمتني المبلغ. وابتسامة مشرقة تعلو وجهها. تهللت أساريري حتى ظهرت نواجذي، وتركت لها ورقة نقدية عربونا على شكرها، واستدرت عائدا إلى المنزل. مسكت الهاتف بيد وباليد الأخرى مبلغ الألفي درهم. دخلت إلى البيت وقلبي يرقص طربا، وضعت المبلغ على الطاولة، وانهلت على الهاتف بالقبل الحارة. طردت فكرة تغيير شريحة الهاتف، وقررت أن أرسل رسالة شكر على الحوالة المالية. فكرت مليا في الصيغة المناسبة للرد، فلم يستقر ذهني على صيغة معينة. ضغطت كي أكتب رسالة جديدة فوجدت ردا جاهزا:

«لقد توصلت بالقن السري، وسأخرج الحوالة بعد ساعة، خادمكم الوفي».

استغرق تفكيري عدة ثوان، وأضفت بعض التعديلات، ثم ضغطت زر الإرسال: «لقد توصلت بالقن السري، وأخرجت الحوالة، خادمكم الوفي».

مرت دقائق بعدد أصابع اليد الواحدة، حتى جاء الرد:

«الحوالة الثانية، ستصلك بعد خمسة عشر يوما، بنفس الطريقة».

تسمرت في مكاني غير مصدق لما يحصل، هل هو عهد جديد ساقته الأقدار إلي! قديما كانت الحكايات تقول إن إبريقا سحريا هو ما يحقق الأمنيات، وبعد الطفرة التكنولوجية جاءت الهواتف السحرية لتحقيق الأحلام! انكببت مرة أخرى بالقبل عليه، ومحاذرا أن يخرج العفريت من الداخل.

انقضى نصف شهر سريعا. اشتريت بعض الملابس الجديدة، وتخلصت من الخرق البالية التي غطت جسدي لسنوات، وملأت ثلاجتي التي صمدت طويلا تقاوم صوت الصفير داخلها. إلى أن حانت الساعة الموعودة فوصلت رسالة جديدة بنفس العبارة مع إضافة جديدة في الأخير:

«صمتك نجاتك، دمت وفيا».

انتظرت هذا اليوم بفارغ الصبر، أعُدُّ الأيام والساعات بل حتى الدقائق والثواني. ربطتُ حياتي بيوم أنتظر فيه خبرا جميلا، فلقد مضى عقد من الزمن والأخبار الجميلة لا تعرف إلَي طريقا. بعد قبولي للعمل في أحد الفنادق الكبرى، تم رفضي بعد اخبارهم بضرورة خروجي في نصف الوقت، بسبب الحالة الصحية المتدهورة لجدتي. ثم لم تمر إلا أيام قلائل حتى غادرت الحياة، وظللت عاطلا من يومها، ألوم نفسي على استهتاري بحياتها. كانت الحضن الوحيد لي بعد حادثة سير أودت بحياة والدي، وانكببت على الحشيش، متناسيا من فقدت.

يظهر أن العفريت الذي يسكن الهاتف، لن يتخلى عني وعارف بأحوالي، ارتديت ملابسي الجديدة وتوجهت إلى الوكالة نفسها. كانت الساعة تشير إلى الرابعة إلا ربعاً، نفس توقيت المرة الأولى. استقبلتني رباب بابتسامة أكثر إشراقا، وبعبارات ترحيب أرقى. سلمتني المبلغ وتركت لها ورقتين نقديتين، وتهاطلت عبارات الشكر علي، حتى غادرت جدران الوكالة.

استحوذ علي الاستغراب والتعجب، فالحوالة مضاعفة هذه المرة، فتحت الهاتف وأرسلت نفس الرسالة، غير أني اجتهدت في التعبير:

«جزيل الشكر والامتنان، على عطائكم، خادمكم الصموت والوفي».

ظللت أترقب قدوم الجواب. ساعة من الزمن ولم يُسمع رنينٌ للهاتف، زاد قلقي وأطلقت العنان لسوط اللوم أجلد به نفسي: «أنا غبي، غبي... ما أتتني فرصة إلا ضيعتها، أكثرت من عبارات الشكر، وها أنا أحصد نتائج غبائي، كنت سأستفيد لمدة أطول لو أني اكتفيت بعبارة مقتضبة كالرسالة الأولى، لقد كُشِف أمري، ولن تصل لي حوالة جديدة». هممت بإمساك الهاتف والقذف به عُرضَ الحائط، فجاء رنين رسالة جديدة.

«ما دمت صامتا، العطايا لن تتوقف، وما إن يحيدَ لسانك عن فمك سيُقلع من مكانه. بعد عشر دقائق ستصلك الحوالة الثالثة، وستستقبلها بنفس الرقم السري».

لم ألتفت إلى التهديد والوعيد في الرسالة، وصوبت تركيزي إلى عدد أصابع اليدين، ووصول الحوالة الثالثة، انطلقت أرقص في الغرفة، مكررا أغنية رددتها كثيرا في صغري، حينما أستقبل خبرا مفرحا.

الحياة حلوة بَسِ نِفْهَمْهَا

الحياة غنوة ما أحلى أنغامْهَا

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٣)

تسلل وقع صوت الحذاء الأنثوي أكثر إلى الغرفة، وفتح ذو القبعة الرمادية الباب. ظهرت رباب وقد صبغت شفتيها باللون البنفسجي، وجعلت شعرها كعكة مرفوعة عند مؤخر الرأس، تحمل حقيبة طبية في يدها. زادت الصدمة استحواذها عليه، وتعطلت خاصية الربط بين الأحداث.

رباب التي درست معه في المرحلة الابتدائية، ولطالما حاول الاقتراب منها واقتحام سياج الطائفين حولها؛ ها هي تطأ بيته. تذكر كيف ظل حبيسا لخجله، وبقي يراقب الرسائل تنهال عليها من أحمد زميله في الفصل، كلما تذكر ذلك الكم الهائل من البلادة التي كانت تتلبسه، إلا وأطلق السباب والشتائم على نفسه.

تحدث ذو القبعة الرمادية:

المسكين أُشْفق على حاله، ما إن سمع بالمال حتى عطّل دور البصلة السيسائية، لا أدري متى سمع عن حوالة يمكن الحصول عليها برقم سري فقط، دون الإدلاء ببطاقة الهوية. لم نجد في تعاملنا طيلة هذه السنوات الخمس أغبى منه، والأفظع في الأمر أن تخصصه شعبة الاقتصاد! حينما أصادف أمثال هؤلاء الأغبياء الذين بلغوا مراتب متقدمة في الدراسة، أشكر أبي على عدم سماحه لي بالذهاب إلى المدرسة. كنت أظنه أول الأمر متخلفا يمنعني من اكتساب العلم الغربي، لكن كبُرت لأعلم أنه كان ذا نظرة ثاقبة وبُعد نظر. إذ علِم أنّ المطاف ينتهي بهم عاطلين عن العمل وأغبياء، فرفض أن يكون لي المصير نفسه. عليهم أن يشكرونا على خدماتنا لهم، فعلى الأقل يعيشون أيامهم الأخيرة متمتعين بالحياة.

تناهى الحوار إلى مسمعه، لكن دون فهم كلمة منه، انطفأت لفافة الحشيش وأطلق سراحها كي تعانق أرضية الغرفة، واستمرت رائحتها تقاوم الزوال. جلست رباب أمامه تحدجه بنظرات قوية، والصدمة مستحوذة عليه. بالقدر الذي تمنى فيه أن يحصل على فرصة كهاته من قبل، ويستنشق عطرها ملء رئتيه؛ بقدر ما تمنى اليوم لو أنه يستطيع الفرار منها!

أعجبتك الحوالات التي وصلتك، وتسلمتها دون أن تُفصح عن هويتك. ظننت أن مغفلا أرسل إليك مصدر رزق جارٍ. هكذا تحدثت واللون البنفسجي يلطخ شفتيها.

أخذت الدقائق تمر وهو يقلب الفكرة في رأسه، كل تمثلاته حولها والمكانة التي وضعها فيها انهارت، الطيبة، الطفولية، ماذا حدث لها؟ حتى الابتسامة التي حصل عليها في الوكالة كانت مزيفة مصطنعة!

جاء ذو القميص الأسود من أقصى الشقة، وقال بنبرة تشبه نبرة القاضي أثناء المحاكمة:

حان دورك الآن.

ثم استأنف ساخرًا:

أظن أن صاحبنا لم يُصدِّق ما يسمعه، أرسل إلى خادمنا الوفي رسالة، عله يُشيح عن وجهه لثام البلاهة. وأتبعها بضحكة هزت المنزل.

ردت رباب:

ماذا؟ ماذا؟ خادمنا الوفي، وتشاركا في الضحك بنبرات تصاعدية.

لم ينطق بشيء، بقي جالسا فاغرا فاه؛ محاولا تصديق ما يدور في الغرفة وإزاحة الهواجس التي تلعب في رأسه بسبب لفافات الحشيش التي أسرف فيها منذ انهال عليه المال من السماء.

الهاتف المحمول، الحوالات العجيبة، الشخصان الغريبان، الرسائل، الاتصال الأخير، ورباب!

خاضوا حديثا، لم يبلغ لمسامعه منه شيئا، ثم تكلم صاحب القميص الأسود باقتضاب:

لا أظن أن البليد استوعب اللعبة جيدا، أحضر يا مراد سطل الماء من الداخل، حتى يستفيق. وجهزي يا رباب المعدات، ثم توجه صوب الباب مغادرا، يردد:

الحياة حلوة بَسِ نِفْهَمْهَا

الحياة حلوة بَسِ نِفْهَمْهَا

وتوقف كمن تذكر شيئا مهما: لكن الفقراء لا يفهمونها، لذلك يعيشون في شقاء.

بعد مرور بعض الوقت في صمت، استعاد بعضا من وعيه، وفطن للحِبال تكبله وهو ممدد على سريره وسط المنزل، والماء يتقاطر من لحيته. الآن فهم الحكاية جيدا، لقد كان ضحية لخدعة كبيرة. لكن ما فائدة أن تعرف مجرى الواد بعد الغرق!

كأن جسمه قطعة خشب لا حرارة تنبعث منه، أدار عنقه يمينا فوجد على المنضدة صينية طبية مليئة بأدوات الجراحة. شعر بسريان البنج في أوردته، ولا قدرة له لذود الأيادي العابثة به. ثم تمكن المخدر منه، فسلّم جسده لهما من غير مقاومة. مزق مراد قميصه، وأخذت رباب المشرط.

عاد البيت إلى هدوئه، واقتحمت الشمس الغرفة من النافذة المفتوحة على مصراعيها، بعد ليلة من الأحداث والوقائع الصادمة. تجوّل بعينيه في المكان، ثم رمى بصره إلى الحائط باحثا عن الساعة، لم يجد غير المسمار الذي كانت معلقة عليه، فتذكر المصير الذي لقيته قبل أشهر بعدما أزعجه وقْعُ عقاربها.

أدخل يده -وقد تخلصت يداه من الحبال التي كانت تُقيده- تحت الوسادة فوجد الهاتف تشير ساعة شاشته إلى الثالثة والنصف بعد الزوال. انتبه لرسالة على شاشته الرئيسة، فتحها وانفتحت معها مخاوفه:

«الخادم الوفي الصموت، نشكرك على تعاونك معنا، فقد كنت مطيعا، ومكافأة لك، تركنا لك الهاتف، اشرب الماء بانتظام، ولا تهمل كليتك، فدور الواحدة قد يكون صعبا هذه الأيام، وربما نحتاجها فيما بعد، مودتنا الخالصة».

ومرّ أمام عينيه شريط الليلة الماضية، نظر تحت قميصه، فرأى الخيط بلون شفاه رباب، يتخلل الجهة اليسرى من بطنه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أوهن من بيت العنكبوت

بعدما سكنت الحواس لمدة شهر من غيبوبة يئس فيها الأطباء، وظنوا أنه مفارق الحياة لا محالة، حصل ما لم يكن في الحسبان، أخيرا بدأ يسترجع بعضا من وعيه، انطلقت حاسة سمعه فجأة.

تيت.. تيت.. تيت..

لم يدر ماهية الصوت ولا نوعه، يريد أن يستعيد وعيه.

تيت.. تيت.. تيت..

لم يكن يدري أن الموت قريب منه إلى هذه الدرجة، كان يتمناه بالمقدار الذي نتمنى به الحياة، لكن ليس بهذه الطريقة الخاطفة. قاطع تفكيره نفس الصوت.

تيت.. تيت.. تيت..

يحاول فتح عينيه؛ كأن جبلا جاثما على جفنيه، هل هو الموت أم ماذا؟ تسرب بعض الضوء إليهما، والصوت لا يزال على نفس الوقع.

تيت.. تيت.. تيت..

يريد أن يطلق العنان للسباب، لكن لا قوة له على أي شيء، يحاول تحريك رأسه لكنه عاجز عن ذلك، كصخرة ضخمة عليه إزاحتها من مكانها، ما كل هذا الثقل الذي يحس به؟

شعر أن الحياة قد دبت في أطرافه، انجلت الغشاوة عن عينيه ليرى سقفا أبيض وأضواء ساطعة، شرد في محاولة منه لتذكر آخر ما وقع، قبل أن يصل إلى هذا المكان الذي لا يعرف كنهه إلى الآن، بدا ضباب ذاكرته كثيفا لا يمكن تجاوزه، يريد التذكر لكن دون جدوى، لا زالت الصخرة في مكانها، والأسئلة الحائرة المتأججة تتراقص كاللهب في رأسه، أدار عنقه ببطء وثقل، وجد نفسه ينظر إلى مرآة بنظرة منطفئة، تملكه شعور شديد في تحطيمها، ثم أدار عنقه للجهة الأخرى فظهر مصدر الصوت، آلة تظهر عليها خطوط كبيرة وصغيرة.

في مكان قميء، غارق في متاهات من الفوضى واليأس، مسح آثار النوم البادية على وجهه النحيل الضامر وجلس القرفصاء، لم يكن مقطوعا من شجرة كما يقولون، وإنما اختار هذا النمط من العيش بعد خسارته لمن يحب، استقر بمنزله دون عمل، حتى ساءت الأوضاع كثيرا؛ توفيت أمه بعد أن رأت ولدها وقد أفرغ البيت من كل شيء.

تخرج في الجامعة وحصل على عمل يسر له سبل العيش الكريم، سافر كثيرا وارتدى أنواعا رفيعة من الملابس، لكن مع مرور الوقت شعر بهوة في نفسه تزداد وتزداد، والشعور بالكآبة والرتابة ينمو ويطفو؛ إلى أن أتى الفرج من أحدهم حينما

تأمله بنظرة بلهاء ماكرة ونصحه بحنكة: «لو أردت أن تخرج مما أنت فيه، فما عليك إلا أن تلتحق بنا الليلة».

لم يتردد ولو للحظة في الذهاب، لم يسبق أن أمسك سيجارة في يده، لكنه لم يتساءل حينها عن أي شيء، فقط كان يبحث عن الملاذ الذي سيخرجه من الكآبة التي يعيشها، فما قيمة المكان الممتع والهواء اللطيف، والنفس مكدرة بالهموم؟!

الليلة الأولى؛ جسد بلا هيكل، تملكته حالة من الذعر، ودارت الدنيا به دورتها. بخطوات متثاقلة رجع إلى المنزل، أسقط رأسه على الوسادة، شعر برغبة جارفة في النوم، بيد أن إحساسا اجتاحه جعله يتأرجح بين اليقظة والنوم، والدوار المر لم يتوقف.

كثرت الهموم وتزايدت لتجعل الأيام تتشابك مع بعضها، خسر ما معه من مال؛ فبعد الجلسات الأولى المجانية، جاء دوره ليتحمل مصاريف الليالي، باع ما يملك، وما لا يملك. هزة غير مسبوقة أتت على ما تبقَّى من حياته، وتحت تأثير الزلزال الداخلي من الألم والذنب، تردى داخل زوبعة الإدمان والوحدة، لكن البقاء في العزلة والوحدة لم يحل أي مشكلة، وزاد الأمر تفاقما، كل شيء كان قاتلا لكنه لم يمت.

يظن البعض أن المدمنين يستيقظون وهم عازمون على أن يصبحوا مدمنين، لكن الأمر على العكس من ذلك تماما، فقد استغرق الأمر شهورا، حتى اكتشف أنه لا رجوع له عن هذا الطريق. اجتاز حياته كمن يجتاز رواقا طويلا معتما، كان محتاجا لمن ينتشله من هذه الطريق، لمن يرده إلى جادة صوابه، كان يتمنى كل يوم لو تنقلب الأيام، ويصبح بعيدا عن الهيروين وكل ما يقربه إليها، بل كان يتمنى أن لو كان كل ما عاشه حلما معقدا مكتظا بالمشاهد والصور المتداخلة، فالنائم لا يعرف أنه يحلم إلا بعدما يستيقظ. عزم على مواجهة الأمواج، ونسي أنه لا يجيد السباحة.قاطع تفكيره نفس الصوت.

تيت، تيت..تيت..

وتبعه صوت طويل، على إثره جُمِّدت أطرافه.

تيـــــــــــــــــــــــــــــــت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التدوينة

لبست ثيابها، وهيأت ابنتها فوضعتها في عربتها، ثم أزالت الهاتف الذكي من الشاحن. خرجت من البيت صوب السوق التجاري لتلحق ساعات التخفيضات قبل أن تنتهي. الجو مشمس والفصل فصل ربيعي. قررت، أن لا تركب أي وسيلة للنقل، فانتظارها كل مرة ساعة من الزمن، جعل لديها قناعة خاصة بأن تنتقل حيث تريد مشيًا، كي لا تبقى ساعات وهي تنتظر سيارات الأجرة.

تتجول في الشوارع الفسيحة مستمتعة بأشعة الشمس تداعب بشرتها، تدفع العربة بيد واحدة، وتمسك بالأخرى الهاتف متصفحة موقع التواصل الاجتماعي «فيس بوك». تزوجت قبل سنتين، كان حلمها أن تتزوج شخصا مثقفا، شغوفا بالقراءة، وبالفعل تزوجت، بعد قصة حب ظهرت ملامحها في موقع التواصل الاجتماعي. بقيت شهورا تراقب صفحته حتى بادرته بالكلام، متسائلة عن اسم كتاب، وضع منه اقتباسا، حين تيقنت أن لا رجل يستحقها إلا هو، لتبدأ القصة. تبادلا حبا جارفا وتعاهدا على الزواج، كتَبا الأشعار والقصائد، أغرمت به وهام بها، فوجدت نفسها في بيت واحد مع رجل أغرقها بكلمات الحب والهيام.

منشغلة بتصفح جدار الفيس بوك، والتنقل من صفحة إلى صفحة. لم تكتب أي حرف اليوم، والمتتبعون في انتظارها، حاولت كتابة منشور عن تربية الأطفال؛ فمؤخرا وعدت متتبعيها بسلسلة عن تربية الأبناء بعد سلسلة في «فن تعامل الأزواج». تقلب أفكارها لإيجاد فكرة مناسبة، تليق بالموضوع. استغرقت في المشي، ولم يتمكن منها التعب، فلم تحس بطول المسافة، ولا بمشقتها. وصلت إلى المركز التجاري، بعدما تمكنت الشمس من ابنتها على حين غفلة منها. استقرت على فكرة، وأخذت تكتب.

تدفق الحب والحنان وغمرهما، ضمنت بيتا لكنها لم تضمن التفاهم ولو ليوم واحد، سجايا مختبئة طفت من أول يوم، وظهرت طبائع أخرى. فما هي إلا شهور معدودة حتى جف النبع العاطفي في قلبيهما. فالقصائد تبخرت، والكلام المعسول اختفى، بعدما حاصرته آلاف الطلبات؛ طالبته بألف شيء، ولم تقدم في مقابله أي شيء. انغمس في عمله جريا وراء دريهمات؛ فقساوة الحياة لم ترحمه، وقرض البيت يجب أن يُسدّد. اصطدما بواقع مختلف بعيدا عن الحياة الوردية، وفتحا عينيهما على حياة روتينية بعد أشهر قلائل من الزواج. فالحب كالزهر يذبل إن لم يُتعهد بالعناية والسقي. وأصبحت التي تمنَّت الحب بالأمس، تلعن الحب وتبعاته. ليظلا في الأخير تحت سقف واحد خشية طلاق يجعلهما مضغة سائغة في الأفواه.

انتهت من التفكير فكتبت التدوينة على حائطها: «حاولوا الاهتمام بأولادكم، واعتنوا بهم في مختلف أعمارهم». ترأست التدوينة صفحتها فانهالت عليها التعليقات والإعجابات. وقتها تفقدت عربة ابنتها. أرخت الهاتف المحمول من يدها فارتطم بالأرض وتهشم متبعثرا في الأرجاء؛ حينما وجدت العربة فارغة. أخذت تلوح

وتلتفت بشكل هستيري، فالصدمة أكبر من أن توصف. لطالما حاولت التخلص من الهاتف لفرط تعلقها وولعها المستمر به، أبت نفسها أن تطاوعها، فاستمرت في إدمانها عليه. غاصت في عالم لا تجيد السباحة فيه، تنتظر المعجبين والمعجبات أن يغدقوا عليها بالتعليقات. من تدوينة في الشهر إلى تدوينة في الأسبوع، إلى تدوينات في اليوم، نسخ من هنا ولصق هناك، وكتابات متناثرة، كل هذا يمكن أن يكون عاديا؛ لكن أن تضيِّع من سكنت بطنها تسعة أشهر في لحظة! هذا ما لم تضرب له حسابا. أخِذت قطعة منها في لحظة عبثية.

بقيت مصدومة والناس من حولها في ترقب، يكلمونها وهي سابحة في عالم آخر، عادت إلى الوراء وانتابتها حالة هستيرية. توقف الكلام خلف شفتيها وفغرت فاها، أصبحت كل أفكارها وأسئلتها مجرد هواجس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الغرفة ٦٦

ارتدى سامي النظارات الشمسية؛ قصد إخفاء الهالات التي جعلت من تحت عينيه موطنا لها. بعد ليلة متعبة من البحث والاستنتاجات، استيقظ على جو قائظ زاد من رغبته في الذهاب إلى البحر؛ بغية تجديد الطاقة والاستمتاع بالمياه الباردة قبل لقاء المساء بصديقه ضابط الشرطة عمر. أخذ حقيبة الظهر وخرج من المنزل. كل محاولاته في إقناع صديقيه بالذهاب معه باءت بالفشل، رغبته الملحة في تبديد الشحنة التي ألقت بجنودها عليه، جعلته يمارس كل أشكال التمرد حتى يتخلص منها. يدافعها وتدافعه.

التقى بصديقه رشيد عند باب الشقة، فأخذ قنينة عصير من يده ليطفئ بها ذلك اللهب الحارق داخله، لم ينطق بكلمة واكتفى بإلقاء تحية الوداع بيده. توجه إلى محطة سيارات الأجرة، بدت قاحلة لا حياة فيها. الشمس الملتهبة أعلنت عن نفسها بأشعتها المخترقة للطريق الإسفلتي، والعرق يتصبب عليه كشلال منهمر. أخيرا ظهرت سيارة مهترئة تجر عجلاتها كأنها تزحف على الأرض ببطء. حمل جسده وقذف به داخلها، كمن يفرُّ من جحيم إلى جحيم آخر، ما إن استوى في مقعده حتى تسللت إلى أنفه رائحة غريبة ألقت بَسطوتها على المكان، أنفاس متلاحقة، عجلات بطيئة، مذياع رديء، كل شيء التحم ليزيد من الإحساس بالسآمة. والرائحة تواصل غزوها.

كانت الشمس قد توسطت كبد السماء. انطلقت السيارة وانطلق معها فم رجل جالس بأريحية في المقعد الأمامي، بمجرد ما سمع خبر مقتل طالبين على يد ساحر، حتى اقتنص الموضوع وأطلق العنان لصوته الأجش، كأنه كان ينتظر فريسة للانقضاض عليها، راح يسرد أخبار الأقارب والأصدقاء والجيران، وكل ما سمع به من مصائب الشعوذة والمشعوذين، لم يتوقف لسانه عن الكلام كمن تناول مداخلة في ندوة ما؛ فلا الموضوع يجيده ويفيد، ولا يتكلم باقتضاب من غير تشدق فيريح ويستريح. لم يتفاعل معه السائق سوى بإيماءة بالرأس حينا، وبالصمت أحايين أخرى، رغم هذا لم ينقص من عزيمته على مواصلة ثرثرته.

بدت الطريق طويلة شاسعة. لا شجر ولا بيت يكسر رتابة المشهد، والرائحة القميئة مواصلة نفوذها على المكان وغزو الأنوف، إلى أن أعلنت في النهاية عن نفسها؛ رائحة الحشيش ممزوجة برائحة عرق كريهة. داهمه الشعور بالغثيان، وأحس برغبة جامحة في التقيؤ، ما إن تبدت له ملامح وجهته حتى انفرج فمه عن ابتسامة مقتضبة، وانتفض من مكانه كمن لُسع. لفظته السيارة كما تلفظ المعدة طعاما ضاقت به ذرعا، واستأنفت مسيرها الحلزوني مخلفة سحابة سوداء.

شعر بهواء جديد ينعش رئتيه المنقبضتين. لحظتها كانت الشمس تهبط عموديا على الرمل، وكان وهجها على البحر لا يحتمل. قصَد جهة يقِلُّ مصطافوها، بغية الراحة والاستمتاع أكثر. وبالفعل لم يجد غير عائلات قليلة، أخذ مكانا يتوسطهم فهيأه

وقصد البحر. شعر كأن جذوة مشتعلة أطفِئَتْ، كل جنود الشحنة المستفاق بها صاروا غرقى، فتملكته نشوة الانتصار. لم يرجع إلى مكانه إلا بعدما تمكن منه العياء، وأحس بالرمال الذهبية تمارس نوعا من سلطتها عليه، فصار قرار الرفض والمواجهة غير متاح. سلم جسده ليداعب حبات الرمال الساخنة، استسلم لغفوة حاول رفضها في البداية، ولم يقوَ في الأخير على ردها. ثم تملك منه التعب حتى صارت الغفوة، نومة طويلة.

استفاق على جلبة وضوضاء، وظلام دامس يغرق المكان حتى أنك إذا أخرجت يدك لا تكاد تراها. حاول أن يزيح آثار النوم عن عينيه ظنا منه أن المشهد نتيجة النظرة الناعسة؛ فلم يتغير شيء. زادت الرؤية وضوحا ولم يتبدد الظلام. تعالت أصوات لا قِبَلَ له بها، وأخذ يسترجع آخر ما وقع قبل نومه. وقاطعته صيحة طفل صغير.

نظر حوله مستطلعا بعيون زائغة والأصوات تملأ مسامعه، أصوات أطفال وأحاديث نساء ورجال. تراءى له بعض النور فلم يرَ أحدا على مرمى البصر! أخذ يتلفت يمينا ويسارا بسرعة والرعب يقفز من عينيه، أصيب بالهلع ورغب في إطلاق ساقيه للريح، لكنه لم يجسر على ذلك، فالصدمة المستحوذة عليه شلّت أطرافه. نما في وجهه مزيج من كل شيء. فرك عينيه مجددا علَّهُ يكون كابوسا، فلم يتغير المشهد. ارتجف فكاه وتفصد جبينه عرقا، وألقت الحيرة بظلالها على قلبه واعتصرته اعتصارا. أحس بأن لحظات طويلة قد مرت، الأحداث تتدافع في ذهنه حتى أفقدته القدرة على الفهم.

ثمة شيء غريب يحدث. مادت به الأرض، وفجأة ظهر رجل فارع القامة، بالكاد تظهر بعض ملامحه؛ أسمر الوجه ذو لحية كثيفة، شديد سواد الشعر والثياب، وخصلات شعر تنسدل على كتفه. منظره منفر ويبعث على القرف، لو ولّى وجهه إليك لولّيت منه فراراً، ولَمُلِّئت من حاله رعباً. بعينين تتقدان شررا مثل جمرة مشتعلة، رشقه بنظرة متشفية، حملق فيه بدهشة وبلع ريقه بصعوبة، انتصب شعر رأسه وحك عينيه بشدة أكثر. راح قلبه يخفق بلا توقف، فكر ولم يأخذ التفكير حيزا طويلا، فعلم حينها أنه في مأزق لا محالة.

الدموع تفيض وتفور، حتى أنفاسه تكاد تحبس وتحطم ضلوعه. بادره الرجل الغريب بصوت متحشرج وكلام غير مفهوم:

«باسم غمشون ديرف لمخ دمع تجديم..»

ابتلع ريقه ولم يتكلم، ثم انهمرت دموعه في نوبة تشنجية، وفقد السيطرة على مثانته بعد محاولات يائسة في كبحها. استسلم في الأخير من شدة الخوف، تصلب للحظات وأوشك قلبه على التوقف، احتقن وجهه بالدماء وقد غمره العرق، مشاعر جمة اختلطت، ومشاهد عدة تتداعى في ذهنه. أفكاره بدت كحبات الرمال تنسل كلما حاول الإمساك به؛ سيارة الأجرة، قنينة العصير، الرجل الثرثار، البحر، والغرفة.

مضت برهة من الزمن وهو مشلول الأركان والعرق الغزير يسيل على وجهه. يوشك قلبه على الوثب من مكانه، شهيقه وزفيره صارا مسموعين، احتوى رأسه

بين راحتي يديه وزفرَ زفرةَ قوية، ثم أجهش بالبكاء. نظر إليه وهو يمط شفتيه ممتعضا بعينين محمرتين كجمرتي بركان، رمقه من بين أصابعه فلم يقوَ على صدِّ نظراته، ووجد رجليه مكبلتين بقيود غليظة، ورائحة بخور غريبة تملأ المكان.

خاطبه مديد القامة، بنبرة غليظة خلطت الصرامة والاستهزاء:

من تظن نفسك، هل حسبت نفسك محققا؟

تمتم في ارتباك، ولم يتفوه بشيء.. ثم كرر عليه السؤال، بنفس النبرة:

لماذا تطاولت على أغراضي أيها الوقح؟

أجاب وهو يضغط على الكلمات ممتعضا من المنظر:

لم أعبث بشيء، أردت معرفة الحقيقة فقط، لم أرِد إذايتك. أجاب وهو يرمقه بطرف عينه والخوف يعتصره. وبصوت ملؤه الغضب صاح فيه:

ومن أخبرك بأنك مطالب بكشف الحقيقة والبحث عنها!

لحظتها. تقلص وجهه من الذعر، وسقط مغشيا عليه من الخوف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢)

سامي الفيلالي، ٢٢ سنة، طالب بمعهد الإعلام والتواصل، نشأ وترعرع بالحي العتيق لمدينة تطوان، الولد البكر لأسرته الصغيرة. أتم مرحلة الثانوية العامة، وحصل على شهادة «الباكالوريا» بميزة حسن جدا، فزادت رغبته في ولوج معهد الصحافة بالعاصمة الرباط. كان مولعا بالمجال الأدبي منذ صغره. فقد كان مسؤولا عن المجلة المدرسية منذ المرحلة الابتدائية. ظهرت مباراة ولوج المعهد، فقدم ملفه خُفية عن أهله. حاولت أمه مرارا إقناعه بولوج أحد المعاهد الخصوصية في المدينة، إلا أنه رفض التسجيل رفضا باتّا. اجتاز الامتحان بشقيه الشفوي والكتابي، وبعد شهر ظهر اسمه ضمن المقبولين للدراسة بالمعهد، فرح كثيرا بإنجازه؛ فالحلم شارف على الاقتراب، وقد شقّ خطواته الأولى.

أخبر والديه بقَبوله في المعهد. وضعهما أمام الأمر الواقع، فرفضا رفضًا قاطعا نظراً لحالته الصحية، وهذه النقطة هي التي كان يستشيط لها غضبا. لطالما أراد التغلب على مرضه، وكرهه كرها شديدا، فقد وقف عثرة خلال طريق دراسته في المرحلة الإعدادية؛ بعدما تخلَّف عن أصدقائه، ولزِم الفراش مدة ليست باليسيرة. لا يريد أن يتكرر الأمر في هذه المرحلة أيضا، ويتخلَّف عن حلمه الذي تمنى الوصول إليه. لما رأيا تعلقه بقراره، أتاحا له فرصة خوض التجربة، لاسيما وأنهما لم يمنعا عنه شيئا منذ صغره؛ ما فتح فمه على شيء إلا وهرولا إلى توفيره.

مرض في صغره بالزائدة الدودية، ألقته طريح الفراش لشهور، وأصيب معها بحمى لم ينفع معها دواء ولا فحوصات، يئس والداه من الشفاء وأسلما نفسيهما للقدر، فأجريت له عملية جراحية، رغم الاحتمال الضئيل لنجاحها، كُتِب له عمر جديد. كانت سعادة والديه حينها لا يسعها شيء، فزاد تعلقهما به وحرصهما عليه. سخّر أبوه كل ماله في تعليمه، حتى يستدرك ما أضاعه المرض. وبالفعل تمكن من تجاوز كل العراقيل والصعوبات. حصد أعلى المعدلات، وظهرت نباهته في المجال الأدبي وولعه بالشأن الصحفي.

سافرا معه إلى مدينة الرباط واكتريا له منزلا، اطمأنا عليه وودعاه. رغم قساوة الفِراق، إلا أن بعض الاختيارات ضرورية للتعرف على الحياة، والصبر على مُرِّها؛ لتذوق بعضا من حلاوتها في النهاية.

مرت سنتان بسرعة البرق، فالأيام والأوقات، قِصَرُها وطولُها مرتبط بدواخلنا. إلى أن جاءت السنة الثالثة على عجل، فاختار موضوع بحث التخرج، وطفق يجمع المادة العلمية، والحوارات الميدانية. بالموازاة مع ذلك كان متدربا في قسم الحوادث بجريدة إلكترونية.

هزَّه خبر وقع في الحي المجاور لمقر سكنه، مقتل طالبين من كلية الطب، وفرار صاحب المنزل والطالب الثالث. التفاصيل مجهولة. غير أن الجثتين تم فصل رأسيهما عن الجسد بطريقة احترافية. توجه إلى مسرح الجريمة حتى يُعاين عن قرب، وما إن وصل حتى استبشر وجهه لرؤية زميل المرحلة الإعدادية؛ الضابط

عمر ذو الجسم الممشوق، والعضلات المفتولة عكس زملائه. حضوره في قضية يعني حصانة خاصة سيستفيد منها، سيتجول في مسرح الجريمة كيف شاء، على النحو الذي أراد.. رهبة غريبة تسيطر على المكان، رائحة نفاذة كأن الجريمة وقعت للتو. وضع كمامة على الأنف والفم، ثم راح يتجول في المكان، لفت نظره تحت أريكة جانبية عصا ملقاة وعليها جلد مدبوغ، مكتوب عليه عبارة غير مفهومة:

«باسم غمشون ديرف لمخ دمع تجديم.»

على حين غرة من الشرطة ألقى بالجلد المدبوغ في محفظة الظهر الخاصة به. ثم ترجّل من مكانه بعدما أخذ أيضا بعض الأقوال من الضابط عمر. توجه إلى البيت مباشرة، فشُغلٌ كثير ينتظره. ما إن دلف إلى غرفته، حتى وضع الجلد المدبوغ على المكتب وأخذ يقرأ العبارات المكتوبة:

«بلكسداس يولع لماز بلكسداس»

لقد أخذت الجريمة حيزا كبيرا من تفكيره. تلقى اتصالا هاتفيا من صديقه عمر يخبره بأن التحاليل المخبرية كشفت عن استعمال بخور نادرة. انطلق يبحث في سراديب ذاكرته، متى قرأ موضوعا مشابها. هرول إلى رف مكتبته، حينما تذكر مكان رؤية الموضوع أول مرة، قلّب بعض المخطوطات التي حصل عليها بشق الأنفس، فإذ بعنوان عريض يلفت انتباهه، مكتوب بخط غير واضح، وقد تآكل بعضه (السلطان الإفريقي المارد الج....). واصل قراءته فهالته طقوس التحضير المكلِّفة؛ البخور الافريقية، الثعبان الأسود، ودم بعض الحيوانات لرسم دائرة تتخللها مجموعة من الخطوط والأرقام... ذُهل أكثر وقت وقوع نظره على نفس العبارة الموجودة على الجلد المدبوغ الذي أخذه من مسرح الجريمة. هنا تأكد من فرضياته؛ تيقن أن القضية لها ارتباط بالسحر، وأن الطريقة المحاك بها الجلد تدل على ساحر محترف؛ فالكلمات تُستعمل في تحضير المارد الأكبر. خاطب نفسه لحظتها: «مادة دسمة للبحث، وللسّبق الصحفي إن تكلل الاستنتاج بالنجاح وتمكنتُ من الوصول إلى هوية القاتل». كان الوقت ليلا، أخذ الهاتف وأخبر عمر بأنه توصل إلى معطيات مهمة، فعقد معه موعدا عشية يوم غد في المكتب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٣)

مرَّ على آخر نوبة أصابته ما يقارب خمس عشرة سنة، فلم يظننا أن تعاوده بعد هذه المدة. أتيا حاملين ملفه الطبي واتصلا بالمشرف على حالته؛ حتى يشرح للطبيب الحالي أكثر. بدأ يفتح عينيه فسُمح لهم بالدخول.

أمرهم الطبيب بألا يتحدثوا معه حتى يستعيد كامل وعيه بعد غيبوبة لخمسة عشر يوما. لا أحد يدري ماذا رأى خلالها، هذا إن كان رأى شيئا، أم أنه انقطع عن العالم وسبَح في عالم خاص. دلفوا إلى الغرفة رقم ستة وستين وملامحهم تتأرجح بين الفرحة والتوجس، فرحين باستعادته بعضا من وعيه، ومتوجسين من أعراض جانبية قد تصيبه، أو أصابته! بقي الجميع ينظرون لبعضهم بعضا، وهو يتفحص وجوههم. منتظرين ما سينطق به.

وهل سينطق؟

سؤال طرحه الجميع في خَلَدِهم؛ ظل السؤال معلقا لصمت ألقى بسطوته على الغرفة. لم يستطع أحد أن يتجاوز دقائق الانتظار ويطرح سؤالا مباشرا ويُنهي سطوة الصمت! إن أصعب ما قد يفعله الإنسان أن ينتظر! تصبح الدقائق حينها ساعات، والساعات أياما، والأيام سنوات. يزحف الوقت على الأعصاب ويستنزفها، وعلى المزاج فيعتصره. بدأ سامي يحرك فمه، وتهللت أسارير الوجوه. هل يمكن أن يفعلها وينهي هذه اللحظات العصيبة؟!

اغرورقت عينا الأمِّ بالدموع، فقد أحست بمعاناته وهو يحاول أن يتحدث فلا يقدر. هل جربت يوماً أن تشعر بأن داخلك يرغب في الكلام والصراخ، وخارجك يكبحه! أن تكون مكتوف اليدين ليس لديك ما تقدمه ولا ما تؤخره، ولا تملك سوى الانتظار والدعاء! وقف الأب وآلاف الأفكار والأسئلة تدور في رأسه وهو يرى الدموع تسيل في صمت من عيني ابنه البكر، لم يجد ما يعبر به، شعر بلسانه مقيدا. فحرف واحد قد تكون عواقبه وخيمة!

صديقاه سعيد ورشيد عجزا عن استيعاب ما يحصل ففتحا فميهما، وظلاّ يراقبان الوضع، ومن الداخل يجلدان نفسيهما بسياط اللوم، فلو أنهما ذهبا معه حينما دعاهما لما وقع ما وقع. أما عمر فدخل في صمت مطبق، واستند إلى الجدار.

لا يزال يحرك فمه بصعوبة بالغة، والجميع متوجسون. بين تكذيب وتصديق لما يحصل، وبين ربط للمناسبة التي جمعت الوجوه من حوله، استمر سيلان الدموع على وجنتيه الشاحبتين، مواصلا نفس الحركة لفمه الذي أبى أن ينبس بكلمة، وأطرافه التي أبت أن تتحرك. بعد لحظات سادها الصمت والأفكار المختلطة والسريعة، تدخّل الطبيب الذي راقب عن كثب محاولاته المتكررة في الحديث وتحريك أطرافه، فقرر أن يعطي رأيه في الحالة، وقبل أن يفصح عن ذلك، نطق سامي:

لا يزال هاربا، هو من قتل الطالبين، لقد رأيته بعينيّ وأراد أن يقتلني أيضا.

ما رآه وما يجري الآن، أي صلة لربطه مع بعض! أشار الطبيب للجميع بأن يلزموا الصمت، فقد أخبرهم قبل الدخول إلى الغرفة، أنه قد يقول كلاما غير مفهوم لهم، وقد يعني له الكثير، خمسة عشر يوما كفيلة بأن يرى فيها المرء الأعاجيب، ولا أحد يدري في أي عالم كان. زاد ترقب الجميع، وهو يتفحصهم بنظراته، الوجوه تتداخل فيما بينها. الرجل الغامض، سائق سيارة الأجرة، الرجل الثرثار، سعيد، عمر، رشيد، الأب والأم، والطبيب.. واصل كلامه:

عاودتني ضربة الشمس، لم آخذ احتياطاتي، وطرحتني في الفراش، صحيح؟ حسبت أني تعافيت بشكل دائم، إذ بها تباغتني، كنتما محقيْن لم أتعافَ بعدُ.

هنا أخذ الطبيب زمام الأمور، بعدما أحس أن الفرصة مواتية، وأن سامي استرجع وعيه بمحيطه وما وقع له:

النوبة التي أصابته قبل سنوات رجعت بحدة أكبر، ولولا أن تداركه أحد المصطافين بعدما وجده محرورا يتلوى على الشاطئ وأتى به إلى المستشفى؛ لَفارق الحياة ولم نتمكن من إنقاذه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متجر الألعاب

خرج سفيان إلى الحي وهو يعانق ألعابه الجديدة التي حصل عليها بمناسبة نجاحه في المستوى الأول، بعدما نال المرتبة الثانية، في كل مناسبة تغدق عليه أمه بألعاب متنوعة؛ لكن بلال رغم نجاحه وحصوله على المرتبة الأولى، لم يحصل على أي هدية. جالس على عتبة المنزل ممسكا بلعبته القديمة، فمذ أهدتها له أمه في عيد ميلاده الثالث وهو محتفظ بها. الذكرى الوحيدة المتبقية من أم أعطت كل الحب والوئام لابنها البكر، ظل مبتسما رغم ما يراه من ألعاب يملكها غيره؛ فقلبه لا يعرف سبيلا للحقد والحسد.

مرت ثمان ساعات والوجع لم يفتر، والجنين في تخبط. إلى أن استقررت وزوجي في مكتب طبيب زحف الشعر الأبيض على رأسه؛ نترجاه بالإسراع في الإجراءات وإدخالها إلى غرفة العمليات، فلم تعد هناك قدرة على تحمل المزيد من الآلام، لم يلتفت الطبيب لحديثنا، كأن الكلام لم يكن يعنيه، وانطلقت من فمه كلمات مثل الرصاصات:

ادفع نجري لزوجتك العملية القيصرية، إن لم تدفع؛ خذها لتلد في منزلك!

أحسست بالرصاصات تعبر كياني، والدماء الحارة تغلي في عروقي بسرعة، وعيناي تحمران من الغضب، أردت أن أثور ولم أقوَ على ذلك. نظرت بعينين حانيتين إلى زوجتي المتوجعة، فلم أرغب في إضاعة مزيد من الوقت. استشفت تلك الكلمات وواصلت طلبي:

أنا مستعد لأي ضمانات جزائية في سبيل أن يرى مولودي النور، ولا يلحق زوجتي أي مكروه؛ ما كان مدخرا من المال للولادة انقضى قبل شهر، عندما مرض الطفل البكر، وكانت العملية الجراحية هي الحل الوحيد لاستئصال الورم قبل أن ينتشر في الجسد كله، ويستعيد الطفل عافيته.

لم يعرنا اهتماما. وبنظرة محتقرة أخرجنا وأغلق مكتبه. بقيت أثور من الداخل كالمجنون أملأ أرجاء المستشفى جيئة وذهابا، وبقيت صدى كلماته تدوي في أذني، أحاول طردها، شعرت أني مكتوف اليدين، لا حول لي ولا قوة. أجلست زوجي على مقعد متهالك، كانت مشدوهة لم تنبس بكلمة، طفرت الدموع من عينيها البريئتين، وتصبب جبينها بعرق بارد، والجنين يتخبط في رحمها، كأنه يمارس شكلا من أشكال الاحتجاج على مشهد يثير الغثيان.

تحركت السيارة بصاحبها قاصدة عيادته الخاصة، فبعد اتصال هاتفي طارئ لم يتردد في التلبية، تاركا العشرات من المرضى ينتظرون دورهم، وأنا راكض خلفه أستعطفه علَّ الرحمة تتخلل قلبه الجامد جمود أرض صلدة.

دكتور، دكتور..

انبهر بلال بتلك الألعاب التي لم تسمح له الأيام بامتلاكها، وأطلق العنان لخياله الصغير، تمنى لو أن له غرفة كبيرة تكسوها ألوان زاهية، وتضم جميع الألعاب، ارتسمت على شفتيه الصغيرتين ابتسامة بريئة، وهو يداعب حلمه ممتطيا حصانا خشبيا رفقة أبيه، ومرتديا بدلة فارس، كالتي يملكها صديقه سفيان.

دكتور، دكتور..

أغلق نافذة السيارة، وأشعل سيجارة، ثم مع أول نفثة لدخانها أطلق السباب واللعن من فمه:

لا يملكون المال ويتسابقون على إنجاب الأطفال، كأنهم يحصلون على جوائز، لا أدري كيف يفكرون! وفي الأخير يتوافدون لإزعاج الطبيب المسكين الذي يقضي كل أوقاته مخلصا في خدمة المرضى، كأننا مؤسسة للأعمال الخيرية، لا شغل لنا غير المتسولين والحمقى! ربت بهذه الكلمات على ضميره الذي حاول الاستيقاظ، ومضى يشق الطريق الإسفلتي.

تنفست الصعداء وانسابت الدموع من غير طواعية مني كشلال منهمر، لطالما حاولت حبسها كي لا أظهر ضعيفا أمام خبث الطبيب ونذالته، لكن دون جدوى، فأحيانا الدموع هي الوسيلة الوحيدة المعبرة عما يخالج مشاعرنا من الداخل.

الجنين في تخبط.. والوجع في تزايد...

لا صوت إلا صوت الصراخ، العرق يتدفق على جبينها كسيل منهمر، والدموع تنزل كالأنهار من عينيها الصغيرتين، فجأة اعترت جسدها الواهن رعشة رهيبة، وشخصت عيناها، توقف التخبط، وتراءى أمامها شريط حياتها، مشاهد الرحلة الطويلة من التجارب والحب، والفاقة والآلام، حتى انتهت بها إلى هذا المكان الحقير بأصحابه.

عدت مهرولا فوجدت زوجي جثة هامدة ملقاة على الأرض، وسابحة في بركة دم. بدا المستشفى حينها كساحة إعدام، كل من يلجها من غير مال يكون مآله المصير ذاته. فارقتني حبيبتي التي تشاركت معها أغلب لحظاتي، أحببنا بعضنا رغم قلة حيلتنا، فلم يكن الفقر عقبة في طريق من أحبّا بعضهما، وأخلصا في ذلك.

عاد من شروده لواجهة متجر فاره، دخل إلى المحل، واشترى بعض الهدايا، ثم انفض راجعا إلى المنزل. دارت الدنيا دورتها ملقية بطفل في بيت جدته، لتعويض حنان أم غادرت في ريعان شبابها، بقي حلمه حبيسا لخياله، وتنهد بصوت بريء، قبل أن يوقظه صوت أبيه وهو ينادي عليه:

بلال، بلال..

استدار فرأى أباه محملاً ببعض الهدايا المقتناة من المتجر الفاره كما كان يتمناها، فرغم انشغاله في الحياة لم ينس أن يشارك ابنه فرحة نجاحه الدراسي الأول، ويسترجع ثغره البسمة التي نسيها مع مرور الأيام، وتكالب السنين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقاء بلا موعد

تلطخت السماء باللون البرتقالي، فخرجت أتجول في شوارع مدينة طنجة متنفسا هواءها، ومستمتعا بمسائها، كعادتي في نهاية كل أسبوع. ففي خضم حياة مليئة بالمتاعب، تعتبر الجولة المسائية المتنفسَ الوحيد. بمجرد ما تقابلت مع البحر اجتاحتني ريح مفعمة بالحياة، أيقظت شجوني وبعثرت أوراقي.. لحظتها جرت نحوي إحداهن وطوقتني بذراعيها مع عناق حار. حاولت أن أُبعدها بكلتا يديّ، وأتعرف ملامحها، فلا أعرف من ستتجرأ علي بهاته الطريقة! أردت أن أزيحها عني، أن أحتج على اقتحامها، ولم أجد طاقة لذلك. فحرارة أنفاسها جعلتني أنصهر، أذوب دون أن أحس.

طفقت تضرب على كتفي وظهري معاتبة، ازداد تعجبي وبقيت عاجزا عن صدها، أنفاسها الحارة متواصلة، ويداها الناعمتان، تطوقانني تارة، وتضربانني على كتفي تارة. لم تكن ضرباتها توجع، فقد كانت مختلفة، مزيجا من الراحة والألم. أغمضت عيني مستسلما غاصا في أفكاري. وانطلقت تعاتبني عتاب الحبيبة لحبيبها، عاتبتني عتابا شديدا، كأنها تعرفني مدة ليست باليسيرة، عتاب الفاقد لفقيده، فلم أملك إلا أن أرخي سمعي لكلماتها. وشرعت كلماتها تقطر من شفتيها كشهد مصفى:

كل يوم أنتظرك، أنتظركَ، لكنك نسيتني واخترت الابتعاد عني، حتى في أكثر الحالات قربا، كنتُ دائما قريبة منك لكنك اخترت أن تتجاهلني، لم تبالِ بما كان بيننا.

واصلت ضرباتها على كتفي وظهري، واستغربت كثيرا من كلماتها، حاولت الغوص أكثر لفك رموزها، لكن دون نتيجة! فلا أذكر أني ابتعدت، ولا أني كنت قريبا في يوم من الأيام، هل حسبتني شخصا آخر؟!

أردت دفعها بكلتا يديّ، حتى أتمكن من رؤية وجهها، لكن أنى لي ذلك بعد أن خارت قواي وكل أطرافي خاضعة لها، كانت الصدمة تستحوذ علي، وعقلي هائم يحلل كلماتها علّه يجد بين طياتها ما يكون بلسما للحيرة التي اجتاحتني.

واصلَت معاتبتي بمشاعر جياشة، وخفتت نبرة صوتها. هل ستبكي؟ تساءلت، هل تسببتُ في هذه المعاناة من حيث لا أدري؟! شرعتُ أبحث في سراديب ذاكرتي، فقاطعني صوت نشيجها الخافت، تملّكني شعور وكأني أعرف هذا الصوت، كأني قضيت سنوات طويلة معه. هنا فقط كأن صفعة قوية هوت على وجهي، بعثرت أوراقي المتبقية، لدرجة أنها أعادت سنواتي الأولى إلى الشط. تذكرت الطفل الذي لم يتجاوز سنواته الخمس وهو يكبر، تذكرتها جيدا، كنت سأبادلها نفس العتاب الذي ابتدرتني به، لكن زاد نشيجها فتراجعت عن ذلك، تجمدت في مكاني، وارتجفت شفتاي، تسربت دمعة حارة على خدي، فضحت كل مشاعري. ما حاولتُ إخفاءه وتجاهلته، طفا على وجهي. كنت قاسيا حين نسيتها بهذه الطريقة، جريت وراء

سراب حسبته ماء سيروي ظمئي، كنت مخطئا، مخطئا جدا في حقها، أيُعقل أني تجاهلتها كل هذه المدة غير آبه وهي قريبة مني؟!

لا أدري كيف استطعتُ نسيان تلك المكالمات الانفرادية الخالية من الكذب والتزييف، لحظة الطرح الصريح البعيد عن النفاق والخداع، دون أن نخشى أذنا تتلصص علينا.

افتقدتكِ كما افتقدتُ حواراتك، سلمتِني للحياة فعصفت بي عواصف كادت ترديني قتيلا، لكني ظللت أحاول الوقوف، أسقط وأقف. تغيرت حياتي كثيرا، أتصدِّقين أني لم أتذكركِ حتى في أحلك الحالات وأصعبها! لم أعمل بنصيحة درويش؛ وفي طريقي للبحث عن الحياة نسيت أن أعيش ونسيتك. عصفت بي الحياة بشكل لا تتصورينه، في كل ضعف كان شيء يهزني من أعماقِ أعماقي، هل كان هذا صوتك؟ كيف لم أنتبه لذلك! كنت تنادينني أحيانا ولا ألقِي لك بالا! كنتُ تائها، كنتِ قريبة للحد الذي لم أستطع رؤيتك فيه، فدائما ما نخطئ في حق من يكون قريبا منّا، لأنه يتجاوز عنّا كثيرا، ويعرف حقيقتنا؛ عيوبنا ومزايانا. لكن هذا ليس مبررِا طبعا!

أعترف أني كنت متهورا جدا، تجرعت صنوف المرارات في سبيل اليوم الذي سترجعين فيه، ويملأ صوتك جنباتي، كما كنت تفعلين في طفولتي، وتغمرينني بالدفء. دائما ما كنتِ وفية لي، لكن في لحظة تيه تسربت من بين يدي دون أن أنتبه.

صعَّدْت من صوتي قليلا، وأردفت معاتبا:

لكنك تتشاركين معي في الخطأ، ألم تكوني قادرة على الصراخ بكل ما أوتيتِ من قوة، صرخة تزعزعين بها كل أركاني، فلم يكن مجال لأنتبه لك دون تلك الصرخة في خضم معترك الحياة!

توقف نشيجها، فحسبتها مصغية لكلامي الذي لم تبح به شفتاي. أحسست بها كأنها تحاول أن تعقب على كلامي، فنبست بكلمات حانية:

ولقاؤنا اليوم؟!

أجبتها بنفس النبرة:

لقاؤنا اليوم كان مختلفا، فقد لفحني شوقك ملتهبا، موقظا جذوة ظننتها لن تشتعل أبدا.

احتكرتُ الحوار ولم أعد أسمع لها حسا، أصَدَقت كلامي أم أنها لم تلتفت لمبرراتي واعتبرتها واهية؟ فمن سيشتاق سيخوض كل المعارك، ومن أحب لا يمكن أن ينسى محبوبه، وأنا لم أُقدم على أي معركة. تكلمت كثيرا دون سماع أي رد، أو أحس بحرارة أنفاسها، لم أعد أحس بالدفء، واعترتني برودة شديدة، مناقضة لما كان قبل لحظات، فتحت عيني فإذ بي أقف وحيدا على كورنيش المدينة الهائمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العودة

أفرغ جام غضبه على مديره، وخرج مسرعا من مكتب الاجتماعات. تهاون مؤخرا في إتمام أعماله نتيجة إرهاق مرير اجتاحه، فكان ذلك سببا في توتر العلاقات، وانقطاع التواصل. وصل إلى سيارته بعدما تمكن منه المطر، أشعل سيجارته بيد مرتعشة، ثم أعلن السباب والشتم، للمدير وبقية الزملاء. شقت السيارة طريقها بسرعة مفرطة، تمرق من الضباب الكثيف، والمطر الغزير.

أمسكت بيد ابنها وهي تنتظر سيارة أجرة تنقذها من هذه الأمسية الظلماء، خرجت من بيتها في جو صحو لتشتري ألعابا بمناسبة نجاح ولدها في سنته الأولى من المدرسة، لكن لم تمض إلا سويعات حتى تجمعت الغيوم، وانقلب الجو ماطرا عاصفا.

ازداد المطر غزارة وتخللته بروق ورعود، والسيارة لازالت تشق طريقها بمصابيح أمامية معطلة وسط شوارع البلد الموحشة والخالية. منذ الأسبوع الماضي وهو متهاون في إصلاحها؛ بسبب انهماكه المستمر في العمل. صعوبة الطريق أمامه، جعلت جلسته متوترة، يمسح الزجاج بطرف قميصه، والسيجارة في يده، واليد الأخرى تمسك المقود، شعر بدماء حارة متدفقة في وجهه، وشرر يتطاير من عينيه. تابع نفث دخان سيجارته كقطار غاضب. كان يدخن على غير عادته. شرد للحظة فإذ بعقب السيجارة يحرق يده، ثم اصطدام عنيف صاحبته صرخة أوقفت صوت المطر الغزير. لم يدر ما حدث فبين غفوة وهفوة، وقع الاصطدام، لكنه لم يتوقف...

لم يتوقف، انتابه الذعر، أحس باختناق فأزال ربطة العنق، وانطلق قلبه يخفق بسرعة. بينما كان ضغط رهيب يشد على دماغه. سرت رعشة غريبة في جسده، وبيدين مرتجفتين حاول السيطرة على مقود السيارة. شيء ما ظل عالقا في الزجاج الأمامي، بماذا اصطدم؟

في محاولة لاستيعاب ما حصل، استكمل طريقه في خيفة يخترق الضباب. كان كل شيء على الطريق معتما وبلا شكل، رغم أن الوقت لم يتجاوز الخامسة مساء. بأرجل مثقلة ولج إلى البيت مرتبكا والخوف والرجفة تنهش جسده الضعيف، هوى على سريره بجسده المتهالك، طالبا لراحة افتقدها من شهور، وأصبحت أفكاره مجرد كوابيس.

في الصباح أتم جميع الإجراءات؛ وبعدها رجع إلى بلده بعدما أنهى كل ارتباطاته، وطلب إجازة ليرتاح. لم تعد له قدرة كي يتم عملا، خارت قواه وتمكن الإرهاق المر منه. استقبلته زوجته عند باب المنزل بابتسامة عريضة، واستقبلها بوجه خاطف، فتأرجحت مشاعرها بين الخوف والدهشة. طرحت عليه زمرة من الأسئلة، لكن بدت أسئلتها كصدى صوت لا يعود إلا بنفس الأسئلة. فلا تزال الصرخة ترن في أذنيه. شعر بالدماء الحارة متدفقة في وجهه، واكتفى بالصمت الصارخ بين أضلعه.

تملكته رعشة وشحب وجهه، أمسكت بيده؛ فاستند عليها وصاحبته إلى غرفة النوم بصمت غير معتاد.

انتفض من فراشه يرتعش وأسنانه تصطك بريبة؛ هاجمته الصرخة كفيضان صارخ في رأسه، ودقات قلبه تتسارع وهلعه يتعالى. رغم مرور ستة أشهر على رجوعه، وتمديد فترة الراحة، إلا أن الصرخة ما تزال تسكن أذنيه. ساءت حالته كثيرا، ورغم تردده على الطبيب النفسي لم يبح بشيء، فبعض الآلام خرساء، لا يمكن أن توصف ببضع كلمات، بقي حبيس المنزل من حينها، وأصبحت زوجته كل يوم في حالة ترقب، تنظر لزوجها وقد غيّره السفر الأخير؛ من رجل مبتسم ومبتهج، إلى رجل ساهم في اللاشيء، مقطب الحاجبين، والدموع جامدة في عينيه.

أشرقت شمس صباح جديد، لكن لم تشرق معها نفس يوسف. تنهد في حسرة وتمتم بكلمات، أخذ بعض المال وخرج على حين غرة من زوجته؛ منهوك القوى كأنه خارج لتوه من عمل مرهق، يتجول كتائه بين أحضان المدينة العتيقة يجر ساقيه جرًا. ما إن لمح امرأة برفقة ولدها حتى مشى نحوها مسرعا، أخذ بعض المال من جيبه وأعطاه للصبي. وقفت الأم متعجبة واستأنفت طريقها في ريبة. كرر الأمر نفسه مع كل امرأة تصطحب ابنها حتى تمكن منه التعب، واستنفد ما معه من مال. شعر بالضعف الشديد في ساقيه، وأنهما بالكاد تحملانه. ثم توجه إلى دكانٍ اشترى منه بعض الحاجيات بما تبقى معه من دريهمات وعاد إلى المنزل. لم تشَأ زوجته معاتبته عن خروجه دون إخبار، واستقبلته بابتسامة ظنت معها أن حالته قد تحسنت. دلف إلى غرفته فهوى على سريره كمن سقط من شاهق.

استيقظ فزعا مضطربا والدموع تنساب من عينيه على صوت الصرخة التي لا زالت ترن في أذنيه. يرى امرأة برفقة ابنها الممسك ببعض الهدايا المحطمة، وقد تمكن منهما المطر، والدماء تنزف من جروحهما، يتجولان في غرفته وثيابهما ملطخة بالدماء، يشيران إليه بأصبعيهما، وينظران له نظرة حقد وكراهية. اتسعت عيناه بشدة وتسمر في مكانه.

الصرخة تصم أذنيه، أمسك بأذنيه يحاول كتم الصوت النافذ إلى أعماق أعماقه. حينها بدأ صدره يعلو ويهبط فيما يشبه اللهاث، انتابه خاطر مزعج تسلل إلى عقله بخبث، ورفع حاجبيه باستنكار. خرج من الغرفة مسرعا، وعرج إلى سطح المنزل، يلحق بالمرأة وولدها، والصرخة تشق رأسه، أخرج من جيبه الحبل الذي اشتراه وأخفاه عن زوجته، مرّ شريط حياته أمامه، والصرخة تتكرر وتتكرر حتى كاد صداها يصمُّ أذنيه.

صدح آذان الفجر في المدينة الهادئة، تحسست مكان زوجها فلم تجده. تملكها الخوف، نادت عليه فلم يُجب. بحثت في باقي الغرف، فلم تجد أثرا. بدأ يتسلل الذعر والقلق إلى نفسها تدريجيا، ما من مكان يمكنه الذهاب إليه في هذا الوقت المتأخر؛ قررتْ تفقد السطح ربّما أراد أن يتنفس بعضا من هواء الفجر المنعش، فصعدت. بلعت ريقها بصعوبة، وانفجر الدمع من عينيها حينما رأته معلقًا من رقبته بحبل. وصرخت صرخة كسرت فيها صمت الفجر، ودخلت في هذيان أعقبه سقوط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الخطيئة الأولى

فتح عينيه على معالم غرفة باردة لا يبدد قساوتها إلا فراش مهترئ يضمه وأمه في الطابق الرابع، من بيت يعج بالصبيان ومدمني المخدرات وتجارها. حي تسكنه الأستاذة فدوى، والحاج سفيان الذي حج خمس مرات، والأخ أحمد، والسِّتّ شريفة التي تقضي اليوم كله بباب منزلها تراقب الرائح والعائد. وسط هذا الخليط يمضي نهاره خارج المنزل يجري هنا وهناك، في حين تقضي الأم يومها في غرفتها، والزبائن في تهافت مستمر. وشكاوى الجارات لا تفتر، فتجد في آخر يومها آثارا للشجار والضرب على ابنها.

بدأت الحكاية قبل عشر سنوات، حين تعرفت على الفارس المغوار الذي فتح قلعة قلبها بمفتاح كلماته المعسولة، فدخلت غمار قصة عنوانها الحب. غمرتها كل أحاسيس الوئام، فوثقت بمشاعرها وتبعتها. أشرقت شمس ربيعها معلنة انتهاء الخريف، خطوة فخطوة، ومن لقاء إلى لقاء، فاضت المشاعر وغمرت الوجدان. ارتبطت به أكثر فأكثر، بَنَيا مملكة من حب على شاطئ ساحل، وسبحا في الخيال، وبدأت صورته تتبدى في أحلامها. ظنت أنهما سيكتبان أروع قصة حب.

***

جاء اليوم الذي سكن فيه كل شيء، أفقت على صدمة مختلفة، لم يكن هناك من كلام يقال، المصيبة لا تحتاج لشيء إلا لصمت ثقيل يخفف من هول الصدمة الثقيلة. كان محترفا باللعب بأعواد الثقاب، وكان قلبي من ورق؛ فاشتعل. غرقت في وحل لا فرار منه، وامتلأ قلبي بمشاعر متضاربة. تلطخ كل شيء أمامي بالسواد، ولعبت الهواجس برأسي، موجة قضت على مملكتنا الرملية المبنية على شط الساحل، حينها تيقنت أن حياة أخرى قد ابتدأت من غير إذني، تاركة عواطفي متوهجة وشوقي ملتهباً.

مرت أشهر وأنا على نفس الحالة، من حانة إلى حانة أجر أذيال الخيبة والقلق. خرجت من بيت والديّ بلا عودة، هروبا من همسات قاتلة تنتقل من بيت إلى بيت، وضحكات ساخرة تقذفها أفواه شامتة لا ترحم، في محاولة مني لبناء حياة جديدة على أنقاض حياة مضت. حياة تركت فيها كل شيء وراء ظهري، تركتُ والديّ اللذان لم يترددا في تلبية طلباتي وإغراقي بالهدايا، غير أن هذه الأشياء لم تبدد إحساسي بالحرمان من الحب والحنان كأي فتاة تستقبل ربيعها العشرين، فبحثت عن الحب في مكان آخر بعيدا عن المملكة الصغيرة.

خرج ابني إلى العالم، ولو أنه خيِّر بين عالمه وهذا العالم، لما تردد هنيهة في اختيار عالمه، لكنه خرج إلى الوجود وقُضي الأمر! ظللت شهورا في المنزل بعد الولادة، استنفدت كل ما كان معي من مال؛ فلم أجد سبيلا غير العودة إلى ما كنت عليه من قبل. إلى مستنقع لا مجال للشفقة فيه، لا مجال سوى لنهش اللحم الطري والتلذذ به. تَعاقَب الزبائن، والطفل يكبر يوما بعد يوم، يرى أشباه الرجال يتهافتون على بيتنا،

لم أتوانى في توفير حاجياته كلها. كبر وبدأ الوعي يتسرب إليه من غير إذني، تردى في هاوية سحيقة من الأسئلة. تساءل عمن يدخل غرفتنا؟ من هؤلاء الزوار الغرباء؟

لم تكن شفتايَ تتبسان بأي كلمة، همي الوحيد الذي يقلقني هو جمع المال الذي يوفر لي ولابني مستقبلا زاهرا. والزبائن في تهافت. استغرقت كل وقتي في جمع الدراهم، وتناسيت أن ابني يكبر ولسان الجيران لا يفتر عن الكلام، وأني مضغة في أفواههم،

وعى حقيقة الأمر ولا مجال لمواراة الشمس بالغربال، تعثر في دراسته وفشل فيها ولم يعد يطيقها، رغم كل الدروس الخصوصية التي تستنزف ميزانية كبيرة، إلا أنه لم تعد له أي رغبة في متابعة دراسته.

سأنقطع عن دراستي وكفى! وباءت محاولات إرجاعه بالفشل.

والزبائن في تهافت..

ظننتُ أنّ المشكل في المال؛ فأغدقت عليه منه. كررت ما سقط فيه والديّ، وتوقعت نتائج مختلفة! اختار طريقا آخر غير الذي آملته له. لكن لأكن صادقة مع نفسي، في الحي الذي يعج بتجار المخدرات لن يجد غير هذا الطريق سبيلا. لم أكترث لما يجري وظننت أنها مرحلة لابد منها في السنوات الأخيرة من المراهقة. تمكنت من جمع مال يكفيني لشراء بيت أعيش فيه رفقته أخيرا، لكنه تحول في غفلة مني إلى تاجر مخدرات! بدأت الليالي الحمراء، يتذوق فيها صنوف السجائر من ملهى إلى ملهى، يتجرع كؤوس الخمر، ويرقص على أنغام السكارى.

تعرف على فتاة من نفس المدرسة الثانوية الخاصة التي كان يدرس بها، وبعد شهور من اللقاءات والمحادثات؛ نمت الأحاسيس والمشاعر كما تنمو البكتريا، فتيقن أنه الوقت المناسب ليتقدم بطلبه، بعدما وثقت به وهو يعلم تماما أنها لن ترفض له طلبا. بعينين بنيتين واسعتين ممتلئتين بالمكر والخداع، قذف من فمه كذبة معتادة معسولة:

غدا سأصطحبك إلى المنزل للتعرف على أمي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

السمفونية

استيقظ على صمت كاسح وظلام دامس، وصدره يعلو ويهبط كموجة غاضبة في محيط ثائر. ظلّ مغمضا عينيه كأن غشاء ثقيلا عليهما، شعر بألم يدق جسده بالكامل، رغم الألم أصر على فتح عينيه حتى يعرف مكانه، بصعوبة بالغة استطاع فتحهما، فلم يرَ سوى الظلام الذي غشي الغرفة. لم يدرِ سبب استيقاظه في هذا الوقت المتأخر، هل هو الجو القائظ الذي يجعل النوم فيه ضربا من الخيال؟ أم هو شيء آخر!

أرخى يده فإذا بها تلامس رأس أحدهم بجواره، تملكه الذعر وتسارعت دقات قلبه، وكاد ينطلق هاربا صارخا، حتى تذكر أنه في غرفته التي يكتريها، وأن هذا صديقه معاذ نائم بجواره، فتراجع عن فكرة هروبه حينها. عادت دقات قلبه لطبيعتها، غير أن صمتا مريعا يسود المكان، لا شهيق, لا زفير, ولا شخير، زيادة على الإضاءة المنعدمة في الغرفة. زميله معاذ من النوع الذي لا يفتر عن الشخير؛ مما يجعل وضع سدادات الأذن أمرا ضروريا تجنبا للسمفونية المزعجة، كما يسميها. لكن اليوم شيء مختلف؛ صمت مطبق يلفّ الغرفة. تحسس أذنيه ليتأكد أنه لا يضع السدادات، فلم يجد شيئا. لطالما تشاجرا بسبب الشخير، خبر مفرح أن يكون معاذ قد تخلص من أنفه، أقصد من شخيره.

ظل متسمرا في سريره، سابحا في سواد قاتم، حلقه جاف ووجهه ملتهب، وألم كفيضان صارخ يدق كل جزء فيه. تحسس السرير بيده، فأمسك بالهاتف الملقى بجانبه، شغَّل الانترنت، وبدأت الرسائل تتوافد، انخفض ضوء الشاشة وانطفأ الهاتف، انتهت البطارية. تمتم بكلمات غير مفهومة، ولعن الهواتف الذكية ومخترعيها. أراد النهوض من مكانه، فلم تظهر ملامح الغرفة، أحس بشيء يشده للسرير، وسرت رعشة خفيفة في جسده. رفع الغطاء عنه، وهمّ لإشعال المصباح وإيقاظ عدنان صديقه -الآخر في نفس الغرفة- المحب للنوم في هدوءٍ تام، حتى يتشاركا الخبر المفرح. ولكن عدنان بادره بالكلام:

وأخيرا، ارتحنا من السمفونية المزعجة، وسننعم بنوم هنيء.

ردّ عليه بمكرٍ:

آه، افتقدنا هذا الصمت منذ اكترينا هذه الغرفة مع قاطرة بشرية قديمة، ثم أتبع كلامه بقهقهة، وعادت الغرفة لسكونها وصمتها.

يبدو أن عدنان أراد أن يشاركني البِشارة، واستأنف نومه، فخبر مفرح كهذا لا يمكن تركه حتى الصّباح، تقلّب في فراشه أملا في الاستمتاع بنومة هنيئة. يفتح عينيه ويغمضهما محاولا مباغتة النعاس، دون جدوى. أحس ببرودة ملابسه، وبمادة لزجة تغطي يديه، لم ينتبه لها حين شغّل الهاتف، ازدادت برودة جسده، وبدأ يرتجف، أسنانه تصطك بريبة، طرد فكرة النوم من باله، واعتدل في مكانه متأملا الظلام

الذي يلف الغرفة، أشعل المصباح ليعرف كنه المادة التي تسيل من بين أصابعه. تبدد الظلام، وأنيرت الغرفة، اتسعت حدقتا عينيه، وجثا على ركبتيه بصرخة أيقظت من في الدار فزعا، وهو يقال بصوت عال وكلمات قوية:

لقد مات واسترحنا، لقد مات واسترحنا.

اجتمع الجيران وصاحب المنزل على باب الغرفة، واقتحموها بعدما أنهكوا الباب بدقات متواصلة ولا مجيب. ولأول مرة تقع أعينهم على الشاب الوقور، يحملق في الحائط بعينين زائغتين، مرتجفا، غارقا في عرقه، ثيابه ملطخة بالدماء، ويهذي بكلمات غير مفهومة:

لقد استرحنا يا عدنان من السمفونية المزعجة، لقد استرحنا يا عدنان.

وجثة صديقه الوحيد معاذ الذي يشاركه الغرفة، هامدة قربه مقطوعة الأنف، وقد غطت الدماء وجهه والسرير الممدد عليه والستائر المسدولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صوفيا

الهواتف تدق واحدا تلو الآخر، الجميع منهمك في عمله، لا كلام سوى محادثات الهواتف. فَتحت الخط كما تفعل طيلة يومها:

شركة المنتجات التجميلية والطبيعية ترحب بكم، ألو!

صوفيا، كيف حالك؟

أعادت الجملة نفسها كأنها لم تسمع شيئا. والاستغراب يملأ كيانها.

بما أنك أردت أن تلعبي هذا الدور، فسأدخل في الموضوع مباشرة.

ردّت عبارة الترحيب مرة أخرى. غير أن الخوف تملَّكَ من نبرتها، وشرع ذهنها يبحث عن تفسير.

مُصرّة أن تتجاهلي صوتي، هل خمسة أشهر كانت كافية لتغييره؟ على فكرة اتصلت كي أبارك لك؛ مبارك عليك عريسك الجديد.

أغلقت سماعة الهاتف والتوتر بادٍ عليها. أطالت النظر إلى الهاتف وهو يرن مجددا، بقيت حائرة، هل ترُد أم تتركه يرِن! دخل المدير السيد توفيق وصرخ في وجهها:

سيدة صوفيا، سيدة صوفيا، هل أجيب أنا؟!

انتبهت لوجوده فارتبكت وأخذت سماعة الهاتف كي ترد:

شركة المنتجات التجميلية والطبيعية ترحب بكم، ألو!

بنفس النبرة أجابها، مع ثقة أكبر. عرفتُ أنك اشتقتِ إلي، كنت أعلم ذلك جيدا.

السعر سيعجبك يا سيدي، منتجاتنا لا تتأخر في الوصول. ردت وهي تداري قلقها وتوترها.

نظر لها السيد توفيق مليا وغمغم قائلا:

يتزوجن فتكاد عقولهن تغادر مكانها. وغادر مكتبها. أفرغت غضبها في الهاتف:

ماذا تريد مني، ماذا تريد مني؟ نسيتك، وبدأت حياة جديدة، فلماذا تتحدث معي؟ ألا يحق لي أن أنعم بالسعادة؟

برافو، برافو، لا تزالين كما عرفتك، تجيدين التمثيل، أنت الضحية وأنا المعتدي. تستحقين النوبل يا آنسة صوفي.. عفوا، سيدة صوفيا.

لا أسمح لك بأن تقارنني بك، أنت مجرم، وقد لقيت جزاءك، فما ذنبي أنا؟ لماذا تصر أن تعكر صفو حياتي؟ هل أنت مريض؟ المرضى مكانهم المستشفيات، لا حياتنا.

لم تنتبه لنفسها وقت صراخها. زملاؤها جميعهم يسترقون السمع والنظر إليها؛ فصوتها جاوز ضجيج الهواتف الذي يملأ المكان. حافظ على هدوئه، يعرفها جيدا، لا يعاملها ببرودة إلا وتثور حفيظتها.

نعم، مريض بك، وها أنا عدت كي أُشفى، اشتقت إليك أيتها المشاكسة، أعلم أنك أيضا اشتقت إلي.

لم يغير السجن طباعك، حسبتُ أنك ستخرج منه رجلا. أقفلت الخط. وسط ذهول الجميع. طيلة الشهور الخمسة الماضية في عملها، لم يسمعوها تتحدث بهاته الطريقة.

بقي الهاتف يستغيث بمن يجيب، وتركت صوته يعانق جدران الغرفة. وفي الأخير اختارت الرضوخ:

حيوان. ماذا تريد مني، ماذا تريد؟

السيدة صوفيا!

ابتلعت ريقها بصعوبة:

السيد المدير، أعتذر، أعتذر، أنا..

أنتظرك في المكتب.

أجابها والغضب واضح من نبرته.

بالكاد استطاعت القيام من على كرسيها. قصدت مكتب المدير، وعقلها يتخبط بين مراد الذي ظنت أنها تخلصت منه، وبين المدير الذي أهانته قبل قليل. بحثت كثيرا عن مبرر، لقول كلمة حيوان في هاتف العمل، ولكنها لم تجد، متيقنة أنه سيكتشف أمرها بسرعة إن هي حاولت الكذب. بلغت باب المكتب، ولم تصل بعد إلى إجابة تدافع بها عن نفسها.

بوجه محمر والشرر يتطاير من عينيه، تأملها جيدا، ولم يتكلم. زاد توترها أكثر، وظلت تشبك يديها بغير هدف، دقات قلبها صارت كصوت طبل مشدود يكاد يقفز من صدرها، تبلع ريقها بصوت مسموع. مراد الذي عاد بعد أن ظنت أنها تخلصت منه، المدير والإهانة التي تعرض إليها. تعلم طريقته في التعامل مع المشاكل، يختار التلاعب بالنفسية، فإذا ما دخل في الموضوع يكون التوتر قد تمكن منك، فلا تعرف بماذا تجيب.

حاولت التهدئة من روعها، من غير نتيجة، فلا هدوء قبل الرجوع إلى مكتبها. يحاول أن يحاصر نظرتها، أن تقع عيناها في عينيه، لكنها تحاشت النظر طويلا.

صوفيا!

نعم.

وسقطت مغشية عليها..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢)

في غرفة نوم بأثاث جديد، يجلس سلمان بالقرب من زوجته. تزوج حديثا، بعدما تعرف عليها في مركز تجاري. لم يمض على تعارفهما سوى أسبوعين وفي الأسبوع الثالث كانت تجهيزات الزفاف؛ بعد محاولات فاشلة للزواج، لم يشأ أن يطيل فترة التعارف، فالتجارب التي مضت كلها فشلت بسبب طول المدة وكانت نتائجها غير مُرضية.

تخرج قبل سنتين وحصل على مهنة سريعا، عكس ما يحصل عادة للشباب حديثي التخرج. لم يذق طعم البطالة يوما. أحبَّ مريم زميلته في الدراسة، تقدّم لخطبتها، لكنها رفضت وتحججت بأنه لا زال يدرس، ماذا سيقول لأبيها! أخبرته أنه لا يمكن أن يقبل بطالب لا يملك شيئا زوجا لابنته. لم يكن ليُقدم على محادثتها في الموضوع لو أنها لم تبادله نفس الشعور، إلا أنها لم تقبل تقدمه لأهلها، ومن يومها ترك فكرة الزواج جانبا.

بعد تخرجه وحصوله على العمل، علم أنها تزوجت. من يومها طرد فكرة الزواج من باله نهائيا، فإمكانية العثور على زوجة مثلها صعبة التحقق، كان يحس بانجذاب واطمئنان غريبين تجاهها، كلما أراد نسيانها زاد تعلقه بها، لم تغادر أحلامه يوما إلى أن التقى بصوفيا في محل تجاري، أحس بذلك الانجذاب والاطمئنان نفسه، أحبها لأنها ذكرته بحبيبته، وتعلق بها جدا تعلقه بها.

وافق على عملها بعد أشواط كثيرة من الشد والجذب. حصلت على العمل قبل تعارفهما بأسبوعين، بعدما أعياها البحث عنه. لم يعلم عنها شيئا، غير معلومات ضرورية، كالاسم، والعائلة. لم يُرد أن يسأل كثيرا خشية أن يعلم عنها شيئا يضيعها من يده، لاسيما وأنها أحيت ذلك الشعور الذي حسب أنه لن يعوده مرة أخرى. أحيانا يرى صورة مريم فيها كأنها هي، فيوشك على مناداتها باسمها، اختار أن يخبرها بقصته كي يكون صريحا معها، لم تبدِ أي تذمر أو نفور، تعاملت مع الأمر ببرودة غريبة، استغرب من ذلك، وأرجع الأمر إلى نضجها، وأنها لا تريد أن تخسره.

في غرفة وردية الجدران، يتأملها في صمت. حينما اتصل به السيد توفيق مخبرا إياه بحالة زوجته، ترك عمله بسرعة والتحق بها، اعتذر منه كثيرا، وعزا ذلك إلى أعراض الحمل، ثم أحضرها إلى المنزل. راح يسرح في خياله، أخيرا حلم الأبوة سيتحقق، وسيسمي صغيرته مريم، لا زالت ذكراها لم تغادره، أحيانا يسخر من نفسه، كيف أنه ظل وفيا؛ يحبها. في حين أنها تعيش حياتها من غير اكتراث له، ويجيب نفسه؛ قد تكون هي أيضا لا تزال تفكر فيّ، من يعلم! لولا ضغط والديها عليها، لما افترقنا؛ فهي أيضا كانت تحبني. ففي الحب الأوفياء هم من يعانون ويتجرعون صنوف العذاب.

فتحت عينيها بريبة، وأخذت سماعة الهاتف الأرضي، الموضوع على المنضدة بجانب السرير، بسرعة:

نعم.. نعم.

انتبهت لوجود زوجها في الغرفة يتحدث في هاتفه النقال، نظرت إليه بتوجس. انتبه لها فارتسمت على وجهه ابتسامة تقاوم الذبول، وواصل كلامه:

خرجتُ بسبب مرض زوجتي، أعتذر عن ذلك. وأغلق الخط.

رجعت إلى حالتها، بعدما عرفت هوية المتصل. أغمضت عينيها، وبدأت تهذي.

مراد، مراد..

التفت إليها، وقد تشكلت ملامح القلق والغضب على وجهه، حتى سكتت. بعد هنيهة استعادت بعضا من وعيها، لم يخبرها بما سمعه منها، ولم يسألها عن شيء. استفاقت ولا يُسمع في أذنيها إلا صوته وهو يناديها، حينما فتحت عينيها وشاهدت زوجها بقربها، ظلت متوجسة، خشية أن تكون تكلمت بما يخالجها.

سمعت صوت رنين الهاتف المنزلي، فقفزت إليه مجيبة:

ماذا تريد مني؟ ماذا تريد مني.. أخبرتك أن الذي كان بيننا انتهى، لماذا تصر على ملاحقتي؟ اتركني لكي أعيش، أنا متزوجة، وحامل. دعني وشأني، لماذا تضحك؟ ليس ابنك، لم أخن زوجي، دعني أعيش، لا تكدّر علي حياتي...

قام من كرسيه وقصد الباب مغادرا، بعدما تأمل حالها مليا ولم ينبس بحرف، فعقله فقد القدرة على التحليل. نسج عقله الكثير من السيناريوهات، حينما أخبره السيد توفيق عن إهانتها له، وعن صراخها في الهاتف غير المفهوم، لكنه لم يظن أن الأمر بهذا السوء.. فالهاتف الذي قفزت للحديث فيه، عاطل عن العمل منذ مدة. قرأ كثيرا عما يحصل في فترة الحمل، إلا أنه لم يظن يوما أن تلك الفترة من الممكن أن تصبح بهذا السوء، هل فقدت عقلها!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الوأدُ الصّارخ

مضت الأشهر التسعة طويلة جدا، ساعات كأيام ودقائق كالساعات. حضَّر يحيى ومريم الغرفة وزيناها بألوان زاهية، اشتريا أنواعا كثيرة من الملابس، وانتظرا قدومه بلهفة كبيرة. غمرتهما فرحة لا توصف، فبعد زواج دام خمس سنوات، سيحل عليهما ضيف جديد يرسم ملامح السعادة في جنبات البيت. هيأت حقيبتها ونهضت ببطنها الممتد أمامها، مسندة إلى ذراع زوجها وغادرا الشقة.

وصلا إلى المستشفى واستقبلتهما رائحته المعتادة، فأحست بدوران يتغشاها، تشبثت بذراع زوجها أكثر، وأكملا المسير. المكان ممتلئ بالضجيج والصراخ، ومشاهد مرضى تثير الغثيان. مسحت براحة يدها على بطنها، وكأنها تبعث الأمل والاطمئنان لجنينها كي يكف عن التخبط وتحاوره: «اِصبِر فقد شارفنا على الوصول وسترى النور».

تجر رجليها في الردهة كسجين يساق إلى المقصلة. وزوجها يتلفت إليها بين الفينة والأخرى، متأرجحة أحاسيسه بين التوجس والفرح، والسكينة والطمأنينة، والأمل والألم، متسائلا مع نفسه: «تُرى هل ستكتمل الفرحة هذه المرة بعد محاولتين فاشلتين!».

جو رهيب يخيم على المكان، صراخ وعويل، وسب وشتم.. دلفا إلى غرفة الانتظار بعدما اشتد المخاض. أجْلسَها على كرسيٍّ مهترئ يقاوم عوامل الزوال. قصد الممرضة ذات الزي الباهت، مدَّ الظرف في جيبها، ولم تنبس ببنت شفة، أشارت له بعينها أن يتبعاها، ثم توقف عند باب غرفة العمليات حينما أمرته الممرضة بذلك. نظر لزوجه وطمأنها، وتكلفت الممرضة بالباقي. جاء الطبيب على عَجَل يمسح حبات العرق المتقاطر على جبينه الطويل، مرتديا وزرته، ودلف إلى غرفة العمليات.

توقف الزّمن حينها، وملأ الزوج الردهة جيئة وذهابا، يصل إلى مسامعه الصرخات والمشادات الكلامية على البوابة بين رجال الأمن وأهالي المرضى، وتزداد مخاوفه وتوتره، ينظر إلى باب الغرفة كأنه يترجاه أن يفتح. انطلقت صرخة اخترقت الجدران ومسامعه أقوى من سابقاتها، زعزعت أركانه وتصلبت معها فرائصه، علم من نبرتها أنها لزوجته، ظلّ قلبه يرتجف كورقة شجرة تذروها الرياح. توجه بنظره صوب الباب، سمع خطوات متثاقلة تقترب منه، فُتِح الباب وظهرت الممرضة ملطخة بالدماء كأنها خارجة للتو من حرب شعواء، رمقها بعينين ضيقتين تغالبان النعاس، وأشارت بنفس الطريقة الأولى آمرة إياه بأن يتبعها.

استفاقت في غرفة نومها، ألقت بنظرة إلى الجنين بجوارها، تهلل وجهها بشرا وتوردت وجنتاها بحمرة خجولة، رأته يغط في نوم عميق، أحمر البشرة، بشعر أشقر خفيف، ويشبهها في كثير من ملامحه. راودتها فكرة أن تضمه إلى صدرها وترقص به طربا في الغرفة، لكن الألم كان ينخرها ويلقي بسطوته عليها، انتبهت

إلى من حولها، وتلاشت البسمة من محياها فجأة، الكل واجم ونوع من التسخط يظهر من ملامحهم، جو مشحون يُجهض أية محاولة لإبداء الفرحة.

نظرت الأم لولدها فأطلق زفرة حارقة كمن تلقى حملا ثقيلا، وتحدث وهو يضغط على الكلمات ممتعضا بعدما اسودت الدنيا في وجهه. لم تستوعب مريم ما تلقته مسامعها، تحسست أذنيها، ومسحت عينيها من أثر النوم، رمقته بعين والمولود بالعين الأخرى في ضراعة صامتة، وتندى جبينها بعرق ثم شهقت باكية. بعد لحظة من الزمن، اقتربت الحماة منها وهمت بالكلام وصوبته تجاهها، كصياد يجهز بندقيته للفتك بفريسته.

لا كلام عندي غيره، وهذه المشاهد لا تستهوينِي، اتصلتُ بمن سيتكلف بالأمر، ولن يستفسر عن شيء، سيحصل على أجره وسيختفي بعد قضاء مَهمَّتِه.

قاطعها الابن بصوت خفيض وصداع شديد يدك رأسه:

لكن يا أمي لننتظر قليلا! قد يتطلب الأمر علاجا فقط، نعرضه على الأطباء أولا قد تكون إمكانية للعلاج!

أجابته بلهجة أشدّ والشرر يتطاير من عينيها:

إذا أردت أن تتعرض لسخطي فلا تفعل ما قلته، وحينها سيكون عليك أنت وزوجتك أن تبحثا عن مكان يأويكما والمسخ الأخرس!

سقطتْ عليها العبارة كالصاعقة، شعرت بقلبها ينزف دموعا، وتراكمت في عينيها العَبرات، ما ترامى إلى أذنها حقيقة لا حلم، تنذر بشؤم كبير وبركان حارق سيذهب بالأخضر واليابس. في الوهلة الأولى حسبتْ أنه هذيان ما بعد الولادة، تمنت أن يمنحها أحدهم حقنة تهدئ من روعها، فالأفكار تكاد تفتك برأسها، والقدرة على الإدراك أضحت عسيرة. تنظر إلى زوجها والدموع تغزو لحيته النامية، التقت عيناها بعينيه، فحاولت أن تسأله وتستفسره عما يدور في الغرفة الصغيرة، فأشاح بوجهه عنها. رمقت وليدها وكلمات الحماة تقطع جسدها الواهن، كمنْ أصيبت برصاصات من رشاش طائش!

استيقظ المولود وظهرت عيناه الملونتان بلون البحر. ضمته إلى صدرها والفرحة تغمرها، كأن الحديث الذي دار قبل قليل لم يكن يعنيها، وراحت تخاطبه والدموع تسيل على وجنتيها الورديتين في صمت مؤلم:

أنتَ قطعة مني وأنا قطعة منك، لن أتركك ترحل! فلقد لبثت في بطني تسعة أشهر، أيُعقل أنْ أسلِّمك لهم هكذا! انفرج فمه عن ابتسامة، فرفعت صوتها وهي تغالب الألم الذي ينخر جسدها المثقل، رفعت صغيرها بين يديها وهي تشير إليهما:

انظروا، انظروا إنه يبتسم، إنه يبتسم...

وقاطعها رنين الهاتف، أجابت الحماة بكلمات مقتضبة ونبرة حازمة:

انتظر قليلا، دقائق وسيكون معك.

قامت بنفس الإشارة الأولى، إلا أن الشرَّ كان باديا عليها أكثر، وغادرت الغرفة.

دقّ قلبه هلعا، وامتقع وجهه، بقي يحيى حائرا يصارع أمواجا لا قِبل له بها، فلطالما انتظر من يحمل اسمه، ويملأ جنبات المنزل حبا وسكينة، من يكون له فخرا وعزا. أفكار متلاطمة عصفت برأسه، تذكر استعدادهما لقدومه؛ وضبا له الغرفة، ورسما أحلاما هو بطلها. اتكأ على الحائط وأخذ رأسه بين راحتيه، ودخل في حالة من الذهول.

وقتها شرع الليل يغرس مخالبه في أنحاء المدينة البئيسة، دلفت الممرضة إلى الغرفة بأمر من الحماة، أخذت حقنة وخزت بها مريم في ذراعها، حاولت أن تقاوم، دوار شديد ألَمَّ بها، وفقدت وعيها، فنزعت الممرضة الطفل من يدها. بقي يحيى مشدوها من هول الصدمة، وهو مقيّد بأعراف لا قِبل له بها، باحثا عن تفسير لما يقع أمام ناظريه، وقد تزاحمت في عينيه مشاعر مختلفة، غير مصدق لما يحصل، لم يكن خَرَس ابنه هو العائق الذي يمنعه من الاحتفاظ به، وإنما خرسه هو! حينها رحلت الممرضة طفله الصغير من الغرفة وهو ينظر إليه للمرة الأخيرة، وسلمته للغريب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إذا الأحلام قتلت

فتح عينيه بعدما وصلت خيوط الشمس الحارقة إلى وجهه، لا يدري كيف نام في هذا المكان مفترشا الأرض ملتحفا السماء. كان مرهقا جدا فلم يقدر على البحث عن مكان آمن يواري جسده الصغير من الذئاب المفترسة.

أشرقت الشمس مرة أخرى، يعني بداية يوم آخر، سباق آخر قد ابتدأ من غير إذنه. أزال بيده آثار النوم عن عينيه، فتطلع للمكان الذي بات فيه؛ إنه باب مقهى. كان جيدا أن أيقظته أشعة الشمس بدل أن توقظه رِجل من الأرجل وهي منهالة على ظهره. تذكّر المال الذي كان بحوزته فأدخل يده بسرعة في جيبه يتفقده، وجد دريهمات بالكاد تكفي لشراء المناديل وإسكات الأمعاء الصارخة. رغم كدِّ الأمس وتعبه إلا أنه لم يكن جيدا بما فيه الكفاية، أو بالأحرى لم يكونوا كرماء كفاية، فقد خسر أغلب المناديل وهو يُطارد من هنا وهناك.

أيوب، ذو العشر سنوات، يسكن في حي شعبي. لم يولد في الشارع، ولم يختر لنفسه هذا النمط من العيش، بل أجبر عليه قسرا، على الرغم من أنّ أمه لازالت على قيد الحياة وأبوه كذلك. لم تطأ قدمه حُجرة الدرس.

توجه ليشتري ما يقيم به صلبه ويتركه على قيد الحياة، أمّا الجوع فقد سكن أحشاءه. وقف واجما يفكر فيما سيفعل، تذكر أن عليه التوجه للمتجر الذي باعه المناديل، لكن الدريهمات التي معه بالكاد تكفي لأداء ثمن سلعة الأمس، تساءل مع نفسه: هل سيتمكن من إقناع صاحب المحل، كما فعل من قبل؟ بعدما ظل ساعات يتوسل إليه لإعطائه السلعة من غير مال، أم أن اليوم سيكون كسابقه من الأيام عنوانه المنع والسب والقذف دون فائدة تذكر.

ملأ التراب رأسه، وكسا الوسخ جسمه النحيل بعد عشرة أيام من النوم على الأرض الصلدة بعيدا عن المنزل خوفا من أبيه الذي يُنهك ظهره الصغير بالضرب والكي. لولا عمل أمه أحيانا خادمة في البيوت؛ لزارهم الموت قبل مدة. مؤخرا ساءت حالتها، بعد أن باغتها المرض ولازمت الفراش، فجنّ جنون الزوج المعتاد أن يخيِّرها بين أن تعطيه المال ليقامر به، أو ينهال عليها وعلى ابنهما بالضرب.

رغم عدم التحاق أيوب بالمدرسة، لم تسمح أمه بطرده من المنزل للعمل، لكن بعد مرضها لم تعد قادرة على شيء، وحتى عائلتها تنكرت لها وطلبت منها أن تبقى معه، فلا مكان لها في بيتهم بعدما تزوجت من اختارته هي دون رضاهم. لم تجد غير الصبر على علقم العيش والخضوع له.

دارت الدنيا دورتها فوجدت نفسها بين جدران بيت موحش مع رجل لا تجد الرحمة في قلبه موضعا، ولا يعرف من زوجة أنهكها المرض إلا المال، وسبها ليل نهار. فعصفت الأعاصير بـأيوب ملقية به في شوارع المدينة الصاخبة.

سيارة طائشة مرت محاذية لقدميه الصغيرتين، لم يحس بنفسه إلا وقد ثار من مكانه هائجا مذعورا، اصفر وارفض جبينه عرقا وتسارعت نبضات قلبه، فأصبح يرتجف كورقة تذروها الرياح. ثم تساءل: «لماذا لم أتركه كي يصدمني وأرتاح من هذه الدنيا المتعبة الظالم أهلها؟ حتى وإن متُّ هل سيبالي ذلك المدمن بي؟ آه لدموع أمي المسكينة حينها».

رغم صغر سنه ينطق أحيانا بكلام أكبر منه، لقد فعلت الدنيا بهذا الطفل الكثير حتى بلغ هذا الكم من النضج والتشاؤم، مُشَكِّلةً شخصيته بغير إذنه. بعض الأمور في حياتنا ضرورية لتتشكل منها شخصيتنا، وبعض هذه الأمور تكون قاسية وسابقة لأوانها. طأطأ رأسه وقرر أخيرا أن يتجه إلى دكان المناديل، رمق صاحبه من بعيد مقطب الحاجبين، مكشر الأنياب، كانت نظراته تلوح بأنباء مزعجة. ما إن وصل تفحصه بعينيه كأنه يحاول أن يدخل إلى رأسه، وقذف الجملة في وجهه كما تتقذف سدادة قنينة زجاجية:

أتيت يا وْلْد الـحْرام؟

هذا هو ثمن المناديل، لكن أحتاج عددا كبيرا اليوم، أريد أن أجمع مالا كثيرا كي أعود إلى البيت. هكذا تحدث أيوب حينما وضع المال على الطاولة.

تفحصه مرة أخرى، ورد برصاصات قاتلة خرجت من فمه:

أنت تعرف القاعدة؛ ادفع المال تأخذ السلعة، فأنا لم أفتح المحل لفعل الخير، وإنما لجمع المال.

لكن أعطيتني بالأمس المناديل من غير مال، فأرجعتُها اليوم، فما الفرق؟ رد متسائلا.

بعدما استشف الرصاصات التي اخترقت كيانه الصغير، كأنه لم يكن معنيا بالخطاب الأخير، لم يغضب أو يبال بما قيل، فقد اعتاد هذه الشتائم من أقرب الناس دما -أبعدهم قلبا- فكيف ببائع مناديل!

انهال عليه صاحب المحل بوابل من السباب، وأردف قائلا:

الأمس مضى، واليوم لا مجال للتوسل. فهذا محل تجاري، وليس مؤسسة خيرية تصرف المال على أبناء العاهرات.

جاءت الكلمات إلى أذنه محملة بكل أوصاف اليأس والبؤس، أطرق مليّا وعلم أن لا مناص اليوم من الدفع مقابل الأخذ، وبدأت عيناه تلمعان بدمع صامت.

خرج من المحل حاملا علبا من الإهانة والتحقير، بدلا من علب المناديل. وظلّ يسأل نفسه الصغيرة:

لكن كيف سأجمع هذا المبلغ؟

لم يعد يملك درهما، فما كان معه نفد! توجه لعتبة أحد المحلات الكبرى، قرفص والدموع تجري ساخنة على خده، وتسابقت إليه الهموم، صراخ أمه يملأ أذنيه،

تعنيفها لا يزال ماثلا أمام عينيه، لم يفارقاه لحظة، سالت الدموع على وجهه الصغير المترب، وتلعثمت الكلمات في فمه. أخذته غفوة فهوت على رأسه ضربة لم تبالِ بجسده الهزيل، ثم هرب دون تفكير، فالتفكير في مثل هذه المواقف يعني شيئا واحدا؛ أنّه سيأخذ ضربا مبرحا أكثر.

تنهد وجفف أهدابه، توقف فجأة يشاهد كيف أخذ أحدهم مكانا في الشارع يتسول من المارة، فخطر بباله أن يفعل الشيء نفسه. لم يسبق أن مدّ يده لأحد، فكيف سيُقدم على هذا الفعل؟ لا مجال لعزة النفس الآن، لكن كيف السبيل إلى ذلك؟

استحسن الفكرة على مضض، وواصل تجفيف دموعه وهو يتمتم: «اليوم سأرجع للمنزل ومعي المال، لا مجال للتردد إذا أردت التمكن من الاطمئنان على أمي، فمنها أستمد قوتي لمواجهة الدنيا وكآبتها».

جلس وأخرج منديلا من جيبه ووضعه بالقرب منه. مرّ الكثير من الناس، وتوسطت الشمس كبد السماء. وجه شاحب، شعر أشعث، وثياب متسخة. لم يلتفت إليه أحد، فأسند ظهره للجدار، الجدران هي الوحيدة التي تسندنا حينما لا نجد من نستند إليه. أغمض عينيه في يأس تام بعدما مر ما يقارب الساعة دون جدوى، وحين فتحهما وجد امرأة تضع ورقة نقدية على المنديل، مسح عينيه باستماتة بالغة دون تصديق، تبسمت له، وأكملت مسيرها مسرعة، كأنها أُرسلت له خصيصا. شعر كأن الدنيا قد أشرقت في وجهه، تهلل وجهه وأماط الشؤم عنه، فهذه الورقة تعني له الكثير، بها سيفتح الباب الموصد لبيتهم، ويُسكت الشخص المتوحش الذي لا يعرف إلا لغة المال.

استبشر وجهه خيرا وتراقص قلبه فرحا وحلّق جسده طرباً. لفّ الورقة النقدية وأمسكها بيده جيدا، ثم هرول مسرعا وانطلقت ذاكرته؛ يتذكر ملامح وجه أمه البريء، وكيف قلّت نضارته وفقد حيويته بعدما أتعبه الزمن والمرض. ماتت الابتسامة على شفتيها، وأضناها السهر والقلق المستمر. أمٌّ لطالما حلمت ببيت يعمه الحب والحنان، والدفء والوئام، وزوج يقدرها ويحترمها وتحترمه، أحبته وواجهت مصاعب الحياة برفقته.

أمٌّ مكافحة لم تكن مثل قريباتها ممن يقدسن الذهب، فعند الصدمة الأولى حين ابتدأت أيام القحط الأسود، قبل ست سنوات، تنازلت عمّا كانت تملكه من ذهب؛ علّه يتغلب عما ألمّ بهم بعدما اكتُشِف تلاعبه ببعض الملفات، وطُرد من العمل. حسبت أنه سيُقَدِّر تضحيتها معه في محنته، لكن ما لبث أن ردّ الجميل بنقيضه، ولم يلتفت لتضحياتها وعكف أسابيع على السّهر وصرف قيمة الذهب على الليالي الحمراء.

كانت صدمةُ طرده قاسيةً عليه ولم يستوعب ما جرى، فلطالما فكّر وقدّر، وتقصّى ودقّق، وتجرّأ وأقدم، فدجّل وزوّر، وزيّف ولفّق، ولمستقبل زاهر توسّم ولكن سرعان ما انقلَبَتْ حياتهم رأسا على عقب، وتبدد الحلم على شط الطمع واليأس، ووجد نفسه جسما مترهلا، احدودب ظهره ونمت التجاعيد في وجهه، تلفظه الحانات.

لم تعد ملامح السعادة مرسومة في جنبات المنزل، وطفت ملامح الكراهية والتعاسة بدلا من الحب والمودة، لم يكن مرور الأيام يزيد إلا من بؤسها وتعقيد حياتها أكثر فأكثر. يعود للبيت فيملؤه سبًّا وشتما، وتعليقات ساخرة تطفح بالمرارة والحنق، تنسف ما تبقّى من حب.

انطلقت ذاكرته وأرخى رجليه للريح، في نفس الوقت اخترقت سيارة طائشة الشارع متجاوزة إشارة المرور، رفعت جسمه الصغير عاليا وهوت به على الأرض. غرق في دمائه ويده لاتزال ممسكة بأمله الأخير في الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ليلة التخرج

العرق يتساقط، التراب يتناثر، والأنفاس تتصاعد. لم أعتد القدوم إلى هنا. مضت ساعة ولم نصل بعد إلى هدفنا! ما هذه الليلة التي لا يبدو أنها ستنتهي؟ أسمع لهاث صديقي فتزداد قوة حفري، رغم العياء الذي حل ضيفا ثقيلا، لم نتوقف! فقد كان الرعب يتسلل إلينا، ونطرده بالانغماس في الحفر أكثر.

هذا القبر لا قاع له.

هكذا صاح نعمان بعد تمكن التعب منه.

العرق يتساقط، التراب يتناثر، والأنفاس تتصاعد. كنت أظنه أقوى مني، لأني أعتبره أستاذا لي، تتلمذت على يده حينما أتيت إلى هذا العالم، وأنقذني من عالمي. انضافت ساعة أخرى، أصدر المِعْول صوته على صخرة، ولم يمر الكثير من الوقت حتى سمعت صوت تهشم عصا المعول؛ هذا ما كان ينقص هذه الليلة وكأننا نحتاج إلى مشاكل إضافية. لم نفلح بمعولين فكيف بمعول واحد؟! تبا لهذه الليلة، منذ البداية لم أوافق على فكرة قدومنا لهذه المقبرة، استبعدت الفكرة فما سمعته من حكايات عنها. جعل المجيء إليها في ساعة متأخرة شبه مستحيل، لا زلت لحد الساعة أتساءل كيف وصلت إلى هنا!

الموضوع ليس كما يتبادر إلى الأذهان، فلا أحد يأخذ معه هذه الأيام غير كفنه، فقد مرّ عهد الفراعنة وكنوزهم. وبالرغم من أننا نحفر في اليوم الأول من الدفن ولا حاجة لنا بمن دفن قبل أسبوعٍ أو شهرٍ أو سنة، كما أننا نحفر على النساء فقط، إلا أن تلك الفكرة أيضا ليست صحيحة، فلم نرغب يوما في ممارسة الجنس مع الموتى، أو سأكون صادقا أكثر وأقول لم أرغب أنا، أما نعمان قد راودته نفسه يوما حينما أخرجنا جسدا غضا طريا في أول يوم من دفنه. كانت الليلة مقمرة، وظهر جسدها الأبيض كأنه يصيح بنا: «لن تقووا علَى مضاجعتي». وفي غفلة مني انكب بالقُبل على جسدها؛ فأنهضته عنها بصعوبة. كانت الجثة لعروس في مقتبل عمرها لقيت مصرعها بسبب مرض فتك بها.

العرق يتساقط، التراب يتناثر، والأنفاس تتصاعد، وجابر العضو الجديد يراقبنا بتركيز كي يتقن دوره فيما بعد -لا أدري هل هذا اسمه الحقيقي أم الاسم الذي اختاره للعمل، فلا أحد يتعامل باسمه الحقيقي هنا- يجب عليه أن يحضر خمس عمليات حتى يصبح عضوا رسميا، السبيل الوحيد للتأكد من جدية الرغبة، وعدم الخيانة.

كانت هذه هي الليلة الخامسة له معنا؛ يوم التخرج كما أسميه. فمن نفس الطريق مررت، بفضل الحصص الخمس صرت أنافس نعمان، إنه صاحب الفضل في أن صرت بهذا القدر من الخبرة. لا أعلم لماذا اختار هذا الاسم تحديدًا، غير أنني أذكر أنني ضحكت منه حينما أخبرني به في أول يوم لي معه، في هذا العالم نحتاج أسماء مستعارة كي لا تكون فرصة القبض علينا متاحة. أتساءل، لماذا اخترتُ هذا الاسم؟

فلقد نسيت الجواب. النسيان نعمة تستوجب الشكر، لا يعلم قيمتها إلا من ابتلي بذاكرة فولاذية. كيف سيكون حالنا إذا لم ننس شيئا! أعتقد أننا كنا سنكمل حياتنا في شقاء لا نهاية له، ألا ننسى الأماكن، الشخصيات، الوقائع، وعدد الجثث التي نبشت قبورها، الأمر صعب جدا، لا داعي حتى أن أفكر في هذا، أو ربما من الأفضل لي أن أفكر، علّ التفكير يُنسيني الرعب الذي أحاول إخفاءه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢)

كمال، ٣٢ سنة، طالب دكتوراه منذ أربع سنوات، وباحث في التاريخ. قضيت ثلاثة أشهر في هذا العمل بعد سنوات من الرتابة والملل. تركت العمل في مصنع كإنسان آلي يلبي رغبات رئيسه وتختل ساعاته البيولوجية كل أسبوع. قضيت سنوات لا أفكر في شيء سوى العمل والنوم والأكل؛ مثلث الموت، كما يسميه أغلب العمال. الجميع غير راضٍ عن الوضع، والجميع ينتظر الفتات أول الشهر. نخرج من المصنع كهواتف نفدت بطاريتها تحتاج للشحن كي تواصل نشاطها. لا نصلح لشيء غير الأكل والنوم، لا مكان للهوايات ولا لأي شيء.

شعرت بالتعب ينخر عظامي، وبدوت كميتٍ فارٍّ من المقبرة، العظام بارزة من وجهي، وعيناي غاصتا في محجريهما حتى صرت كجمجمة. ماتت مِّي رحمة في حيِّنا فطلبت من رئيسي في العمل أن يسمح لي بحضور الجنازة فرفض! قذفت لباس العمل في وجهه وصفقت الباب ورائي. قد أقْبلُ بألا أمرض، وأواظبَ على الحضور، لكن، أن أقطع علاقتي مع معارفي، وأغرق في «مثلث الموت» وأغيب عن جنازة مِّي(1) رحمة؛ الأم التي ترعرعنا على يدها في الحي؟! هذا الأمر مرفوض البتة. غدا يطلبُ شيئا آخر، ويكون وقت الرفض، قد مضى. في هذا الموقف الذي لا يمت للإنسانية بصلة؛ ترك العمل هو الحل. رد الفعل إن تأخر عن موعده، يصبح والعدم سواء.

حضرت مراسم الدفن، واخترت أن أجلس قليلا عند قبرها بعد أن غادر الجميع. شردت قليلا وأنا خارج من المقبرة، فاصطدمت بشخص يحمل ملامح جامدة وبنية قوية، سقطت على الأرض من قوة الصدمة وساعدني على القيام. صادف أن مقر سكناه قريب من حينا، فاقترح أن يوصلني بسيارته؛ اعتذارا منه على عدم الانتباه والاصطدام الذي وقع. تبادلنا بعض الحديث وأرقام الهاتف وأخبرته عن معاناتي مع وظيفتي التي تركتها، تأسف لحالي كثيرا، وأخبرني بأن من بدرجتي العلمية يجب أن يكون قدوة يحتذى به، لا أن يداس بالأقدام في مصنع لا يحترم إنسانية عمّاله، ثم ودعنا بعضنا.

كان يوم لقائنا الأول والأخير الذي التقينا فيه نهارا، ومن يومها كل لقاءاتنا أصبحت ليلا، ألتقي به وأنهي مهمتي ثم أحصل على المبلغ المتفق عليه، وينطلق كل منا إلى حال سبيله. لم يكن للعمل شروط كثيرة، شرطان فقط: أداء المهمة بصمت، والانصراف من غير ضوضاء. هذا ما جعلني أقبل بالعمل دون أن أطيل التفكير أو أستشير أحدا، فالمبلغ محفز جدا، والشرطان كذلك.

دائما كنت أحلم بعملٍ ليلي أجد متعتي فيه، إلى أن عثرت عليه وأنقذت نفسي من ذلك المستنقع الآسن. يومَ مغادرتي حسبت أن براثن البطالة ستنهشني مجددا، لم أظن أن سبب مغادرتي سيكون طريقا لعملي الجديد. كثيرا ما سمعت أنه بينك وبين حلمك الخطوة الأولى، ولم أظن أنها بهذه السهولة، خطوت الخطوة الأولى وهأنذا أحصد ثمرة مبادرتي. اكتسى عظم وجهي لحما، واستعدت عافيتي، وبنيتي

الجسمانية. أتذكر عملي السابق، فأسخر من نفسي كيف كنت راضيا على العمل الشاق، والمتعب، كلما تذكرت معاناتي القديمة زاد استمتاعي بما أفعله، أحتاج فقط القوة البدنية، والصمت الذي يزيد متعة العمل، فلا صوت مزعج أجش لرئيس، ولا ضجيج آلات. فقط صوت المِعول، والأتربة المتناثرة. في المقبرة التقينا، واستمر عملنا في المقابر، لم نترك مدينة إلا وسافرنا إليها، لم ألتق بمن يطلبون الجثث كنت فقط أحفر وأترك الباقي لـنعمان يتكفل به، أحصل على المال، وأركب سيارتي عائدا إلى مدينتي التي ما إن غادرتها إلا وأحسست بانقباض في قفصي الصدري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(1) تُنطق بضم الميم وتكسين الياء في الدارجة المغربية، ويقصد بها «الأم».

(٣)

التحاق جابر بنا كان بطريقة مغايرة، وجدناه ذات ليلة يحفر وحده بالقرب من المقابر دون هدف، استغربنا في البدء، وأثار حفيظتنا؛ ظننا أنه يحاول إخفاء شيء ما، لكن بعدما بادرناه بالحديث، علِمنا أنه طُرد من العمل وتلقّى شتائم متنوعة من رئيسه، فلم يجد غير إفراغ تلك الطاقة السلبية في الحفر بمعزلٍ عن الناس بدل العودة للعمل وإفراغ طاقته في وجه رئيسه، وتكون العواقب وخيمة.

نظر إلي نعمان مليا في صمت، علمت الفكرة التي تبادرت إلى ذهنه واخترت السكوت محترما القواعد، فقرأ في عيني موافقتي. أخذ رقم هاتفه، واستأنفنا طريقنا. وفي اليوم الموالي وجدته راكبا في سيارة نعمان، متحمسا صامتا، علمت حينها التحاقه بنا، غير أن الأيام الأولى تكون لأخذ الدروس فقط؛ حمل المعاول والمصباح اليدوي ومشاهدة طريقة العمل وإبراز مدى الامتثال للشرطين.

الليلة تخرجه، فقد اجتاز مدة التدريب بنجاح، وفي الأيام المقبلة سيكون عضوا فعالا. هذه الليلة لا تريد أن تنتهي. بقي للفجر ساعة ولم نصل للجثة بعد! وكأننا نستخرج الجثة من بئر سحيق! بدأ الخوف يراودني، خوف لم أشعر به من قبل، حتى أيام تدريبي قضيتها ممتعة على عكس هذه الليلة الملعونة. طلب مني نعمان المِعول ليكمل ما بقي ويسرع للوصول إلى قاع هذا القبر الذي لم يشأ أن ينتهي، كأن الأرض ابتلعت الجثة، أيُعقل أن يكون أحدا قد سبقنا إلى هنا!

لم تشِ ملامح جابر بشيء؛ لا خوف ولا هلع. حافظ على ثباته، لا أعلم من أين استمد هذه القوة، فحتى نعمان الذي سبقنا للميدان بسنوات ارتعدت فرائصه هذه الليلة. لم نمر بليلة كهاته من قبل؛ أن نصل إلى المقبرة ولا نجد الجثة! كانت فكرة بلهاء أن نأتي إلى المقبرة من غير معلومات كافية عنها. القدرة على مواصلة الحفر أخذت تتضاءل، وخاصية الصبر نفدت قبل مدة، قذف نعمان المعول في غضب ولسوء الحظ لقي مصير أخيه؛ تكسرت العصا! كأنها كانت مهشمة!

نهض جابر دون إشعار سابق كأنه كان ينتظر هذه اللحظة، قذف بالمصباح الذي كان يحمله في يده، وسمعنا صوت تحطمه، ثم وقف شامخا. هنا صرخ نعمان مخترقا قاعدته الأولى، ومطلقا العنان للشتم، وجابر لا يبال بأي شيء. لقد نفد صبرنا، بعد ليلة من الحفر، يتحطم المِعول الأول والثاني وهذا الأحمق يكملها بتحطيم المصباح.

أي لعنة أصابتنا هذه الليلة!

أطلق جابر ضحكة لم نفهم طبيعتها. لكنني علمت حينها أن نهاية الليلة لن تمر كسابقاتها. استمر نعمان في السباب، وواصل جابر قهقهته دون اكتراث، لحظتها هَوى نعمان بعد أن صعد من الحفرة بعصا المِعول على رأس جابر. حينها فقط توقف عن الضحك، أمسك بالعصا ودفعه إلى الحفرة. توقفت في مكاني غير مصدق

لما يحدث، سقط نعمان في الحفرة وراح يصرخ ويسبّ بأقدح الأوصاف دون توقف، مهددا ومتوعدا وصارخا من ألم أصاب رجله. وجه جابر نظره إليّ وقال:

أعلم أنك أذكى منه، لا تحاول أن تصنع الأمر نفسه، وإلا ساءتك النتيجة.

بين شعورين متناقضين من التصديق لما يحصل والتكذيب، تعالت صيحات نعمان، فاخترت أن أساعده على الخروج من الحفرة، كان يصرخ من الألم فعند سقوطه تعثر بصخرة كبيرة. أطلّ علينا جابر والظلام لم يترك فرصة لرؤية ملامحه، بنبرة جمعت بين التهديد والوعيد، بل حتى السخرية، وقال:

ظننتَ أن الحياة قد رقصت لك وتمتعت برغدها؟ أخطأت، السعادة التي تُبنى على تعاسة الآخرين، تصير جحيما، وقد حان وقت إرسالك إليه كي تتذوقه.

ألقت الصدمة ظلالها علينا، فالذي يتكلم من فوق بالتأكيد ليس جابرا الذي عرفناه قبل أيام، تلك نبرة مختلفة تماما، أيعقل أن يكون هذا هو الصَّموت صاحب الملامح البريئة؟ سمعتُ عن أقراص للهلوسة، أيكون متعاطٍ لها! من هذا الذي يحدثنا؟ أو ربما تلبسه جن يريد معاقبتنا على انتهاكنا حرمة المقابر؟ هذه الأمور جميعها خطرت في بالي دون الحسم بشيء. سمعت كثيرا عن قصص المقابر، بيد أن ما يحصل الآن مختلف تماما. تيقنت أن إحساسي كان في محله، وهذه المقبرة مصابة بلعنة، لا تفسير لما يحصل غير هذا. لكن ما فائدة هذا الكلام لقد فات أوانه، سأترك الكلام الفارغ جانبا، وأنقذ نفسي من هذا المسخ الذي يحدثنا، وإلا ظلّت جثتي مرمية في الحفرة الملعونة، بدل الجثة التي لم نجدها.

رغبتُ كثيرا في أن تتراجع عن جُرمك، لكنك تماديت أكثر، واستقطبت من يساعدك. كنتَ سببا في أن افترقت وزوجتي، خرَّبت العديد من البيوت، ولا زلتَ على الطريق نفسه. حان الوقت لكي تتذوق المرارة التي تجرعتها لسنوات. هل جربت أن ينقلب حبك لشخص إلى كراهية؟! هكذا تحدث جابر.

صرخ نعمان بما أوتي من قوة:

تحرك وأخرجنا من هذه الحفرة وإلا سأصعد وستندم على كل حرف تنطق به.

حتى في أضعف حالاتك، تُصِرُّ على المكابرة، ظننتك أعقل. رد جابر بنبرة مستهزئة.

أرهقت ذهني في البحث عن تفسير لما يقع دون نتيجة تُذكر. هممت بالصعود من الحفرة، فما يقع هنا لا دخل لي به إنها تصفية حسابات. قبل أن أصعد، قذف في وجهي حبلا وشريطا بلاستيكيا، وأمرني أن أقيد نعمان، وأضع الشريط اللاصق على فمه. تركتهما يقعان على الأرض في غير اكتراث مني، وقتها صرخ فيّ بلهجة آمرة.

لم يبق لي أي خيار، سقطت في حساباتهم الشخصية، وعليّ أن أخرج نفسي منها بطريقة أو بأخرى، فأنا في غنى عما يقع، لذا اخترت ألا أبدي أي مواجهة معه وأنفذ أوامره. قيدته بالحبل، ووضعت اللاصق على فمه، حاول المقاومة ولم يفلح، فآلام

الجرح أقوى من أن يبدي أي مقاومة، حتى أن بنيتي الجسمية، صارت أفضل منه. تذكرت عملي في المصنع وتصرفت كإنسان آلي، تركت العاطفة جانبا، وأتممت مهمتي، ثم صعدت من الحفرة وهممت متوجها إلى باب المقبرة. وقف في وجهي، وبنفس النبرة الغاضبة، أمرني بالجلوس، لم أبدِ أي ضجر؛ رغبتي في العودة إلى البيت دون ضرر كانت هدفي الوحيد، فاخترت الصبر للوصول إليه. صاح جابر:

تجرعتُ المرارة، والسيد نعمان يتمتع بالمال، أقدمت على الانتحار بسببك، وأنت غير آبه لفداحة ما تفعل. أيها الخادم الوفي، بعد هذه السنوات كلِّها، ألم يستيقظ ضميرك يوما؟ ألم تسمعه يصرخ؟ أم أنه أيضا لقي مصير الجثث، اغتصبته ودفنته.

وجهت نظري صوب نعمان في غضب، وصرخت فيه مستفهما:

ما الذي أسمعه؟ موقف واحد حصل أمامي، وظللتَ تقسم بأنك لم تقصد شيئا، وأقنعتني أن الحادثَ عارض! ما هذا الذي أسمعه؟

لم تكتفِ بالعمل مع الدجال، واخترت إفراغ كبتك أيضا. استمر جابر صارخا.

زاد استفهامي والدهشة ألقت بسطوتها علي، ما يقوله جابر تبادر إلى ذهني أول مرة، لكنه أقنعني وأقسم بأغلظ الأيمان أن المسؤولين عن هذه العمليات لا يؤذون أحدا، بالعكس يُقدِّمون خدمات لأسر أنهكها انتظار يوم تفرح ببناتها، وبفضل خدمتنا يتزوجنّ! الخدمة التي لا يمكن أداؤها إلا بيد عروسة ميتة حديثا، كنا دائما حينما نصل إلى الجثة يُخرج مجموعة متنوعة من مناديل الشعر، ويضعها في يد الجثة، وأنطلق أنا إلى حال سبيلي بعدما آخذ المال. في كل مهمة كان يقوم بالأمر نفسه. قاطع جابر أفكاري بكلام وجهه إلي:

حاجتك للمال عطّلت دور البُصلة السيسائية لديك، رغم السنوات التي قضيتها في دراستك غَرّر بك جاهل! الأجرة كانت كافية لإخراس لسانك. اليوم سيلقى جزاءه وسأخلصك وأخلص الجميع من آثامه.

أخرج جابر قنينة بنزين صغيرة من جيب سترته، وراح يصبها على نعمان، وهو يتقلب في مكانه وتتبلل ملابسه، بقيتُ صامتا متأملا لما يحدث، منتظرا نهاية هذه الليلة. واستأنف كلامه:

هل تعلم أن لقاءك به لم يكن صدفة، وأن جارتك رحمة لم تسلم من أفعاله. في الوقت الذي التقيت به وحسبته مصادفة، كان مخططًا منه ليأخذ منك معلومات عنها، ووجدك وجبة سهلة ودسمة. وفي الليل مارس طقوسه معها، رغم أنها كبيرة في السن. لحظتها لم أتمالك نفسي وصرخت من أعماقي في عدم تصديق لما يحدث حولي.

ماذا يا ابن المعتوهة؟ كنتُ ساذجا وأخبرتك بجميع المعلومات عنها. لم أظن أنك حيوان إلى هذه الدرجة. وانهلت عليه ضربا.

تابع جابر:

وقت الإجرام قد مضى وانتهى، وآن الأوان لدفع الحساب. كل أخذ جزاءه؛ الساحر، وحتى المرأة التي كانت سببا في ما جرى لي. لقد أحلْتُ ساعاتهما الأخيرة جحيما، قبل أن يفارقا الحياة، والليلة حان دورك.

غبي، لم تتساءل عن الظروف التي ستواجهها في المقبرة المهجورة؟ بمجرد ما تتلقى الأوامر من مشعوذك تلبي طائعا. اكتفيتَ بالمعلومات التي أخبرك بها، أو بما أخبرتُه أنا ليخبرك بها، وأسرعت في المجيء إلى مصيدتك كالفأر الأحمق. المال يعمي الأعين ويجعل الجُهّال يتحكمون في الجميع.

أطلق ضحكته مرة أخرى، وأخرج من جيبه علبة سجائر وكِبريت، أشعل سيجارة وألقى بعود الثقاب في الحفرة؛ فانطلقت النيران تلفح جسم نعمان، وتصدح آهاته وصرخاته. راح يتمرغ في الأرض، وجابر يهيل التراب عليه ويصيح به، هذه هي ليلة تخرجك، ليلة تخرجك من الدنيا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تلك الحياة

في غرفة خاوية إلا من كراسي متناثرة، يجلس مسندا ظهره للجدار المقابل للنافذة يتأمل أحد النزلاء بصحبة عائلته، تذكروه وأتوا لاسترجاعه. نفث الدخان من فمه مشكلا غمامة فوق رأسه، عيناه ذابلتان، ويده مرتعشة تمسك كأس الشاي الأخضر الساخن.

شاب برفقة زوجه يقبل يد أبيه، ويطلبان منه الصفح والعفو على ما صدر منهما في حقه، محملين بأكياس من الهدايا والملابس. غمرت الأب مشاعر الفرحة والبهجة؛ فلم يتردد في الصفح عنهما، لاسيما بعدما اعترفا بخطئهما. فالمكان يبقى موحشا، حين تغيب فلذات الأكباد عن الأعين. ودّع رفاقه وقد اختلطت على خده دموع الحزن والفرح، وانفرج فمه عما يشبه الكهف، حتى بدت أسنانه الثلاثة الباقية. عزم على الذهاب معهما، واستبشر بعودتهما، متجاوزا كل إساءة صدرت في حقه من قبل.

كانت عيناه تنبضان بالحب والسعادة. لوّح بيده للرجل الذي غزى الشعر الأبيض رأسه وملأت التجاعيد وجهه، القابع خلف النافذة في القاعة الخاوية، لوح له طويلا حتى تمكن من الانتباه إليه، ردّ التحية بيد مرتعشة، مع ابتسامة كاذبة طفت على وجهه. نظر إليه برهة، ثم سحب نفسا طويلا من سيجارة بين أنامله ونفثه بشراسة كأنه يريد إنهاء حياته.

غاص كثيرا في المنظر وجال خاطره.. تيقّظت ذكريات ظن أنه أغلق عليها بألف قفل، وألقى بها في بئر سحيق، لكنها طفت لتشله وتُرجع الحنين إليه. منذ اختار أن يكمل بقية حياته هنا، لم يفصح عن شيء غير هويته، الوحيد الذي ظلت قصته مجهولة، وباءت كل جلسات المساعد الاجتماعي بالفشل؛ رغم ما بذله من جهد محاولا أن يخرجه من أزمته. غمغم بكلام غير مفهوم، وتسمر في مقعده، آخذا شهيقا من سيجارته، مرسلا دخانها إلى رئتيه.

اليوم عزم على البوح، فلا مجال للتردد، أحس بمرارة قاتلة بداخله تجبره على الإفصاح. أغمض عينيه، قبل أن ينطق بصوت مخنوق:

محسن برادة، متقاعد، أرمل، وأب لطفل. أتبع كلامه بابتسامة ساخرة: لقد انسل العمر من بين يدي، وأنا أحاول تأمين حياة راقية سلكت فيها كل السبل؛ المشروعة وغير المشروعة، لم أتوان عن تزوير أو تلفيق أي عقد وأخذ أي رشوة تعرض نفسها علي. كنت أريد أن أصل بسرعة، وأتفرغ من أعباء الحياة لألتفت لعائلتي الصغيرة، فعلت كل ذلك من أجلهم، فمن تلفيق إلى تلفيق، ومن تزوير إلى تزوير، حتى وجدت نفسي خضت في قضايا كبرى لا سبيل للتراجع عنها. الأماني كبرت وتضاعفت، ولم يعد مجال للخوف، حتى زوجتي كانت تعمل لتتعاون معي على أعباء الحياة، وكان ابننا الوحيد يقضي أوقاته رفقة مربية خاصة.

تبدّلت حياتنا وتغير مستوى عيشنا، استقررنا في منزل فاخر، ودرّسنا ولدنا في أفخر المدارس بالمدينة، اشتريت سيارة فارهة، وبدت الحياة مقبلة علي، بعدما كانت مدبرة. كبر الولد من مربية إلى مربية، وأتم دراسته في أرقى المعاهد، وكتبت له كل ما أملك من متاع، بعدما أقنعتني زوجتي بضرورة هذا الإجراء ضمانا لمستقبل ولدنا، وحماية لثروتي من أي تحقيق مستقبلي، لم آخذ مهلة للتفكير، فشبح المحاسبة يلاحقني، أخاف الضياع والمصادرة على ثروة قضيت في تجميعها سنوات. فعلت كل ذلك من أجلهم، بعدها بشهور فارقت زوجتي حياتها، لتتركنا أنا وابني الوحيد.

أرسل صدره المحترق زفرات خرجت كتأوهات ميت في سكراته، واستدرك: جرت الرياح بما لا تشتهي سفني، وأخذت حياتي منحى آخر. توقف عن الحديث وتنهد تنهيدة عميقة، ثم أخرج علبة الأقراص من جيبه، وقذف بقرص في فمه، أتبعه بجرعة ماء، وتندت أهدابه بدموع حارقة تشق طريقها على خده المجعد.

مضى شهر واحد على وفاة أمه، فقرر الزواج بعدها، لم ينتظر حتى أن تجف تربة قبرها. رغم ذلك شاركته فرحه، وسعدت من أجله. ارتعدت شفتاه، تجمدت حدقتا عينيه، وأخذ شهيقا من سيجارته مرسلا دخانها إلى رئتيه. تغير سلوكه وبدوت غريبا في بيته الذي كان بيتي سابقا، تُطالعني نظراته المتجردة من كل حب ومن كل عاطفة، بعدما رفضتُ أن أتِمَّ كتابة ما تبقى من مالي له. لم أكن أحس بفرق بين ما أملك وما يملك، فلم يتبق في حوزتي إلا القليل؛ تركته كي لا أجد نفسي أطلب منه أن يعطيني دريهمات لقضاء حوائجي، ولأكمل به ما تبقى من سنواتي، فالعمر يدنو من نهايته. ضمنت له مستقبلا زاهرا، يعيش فيه بكرامته، لكن...

احمر وجهه، وأحرقت السيجارة أصبعيه، وزاد خفقان قلبه. واستطرد في حديثه:

إلى أن جاء يوم فسمعته يتجادل مع زوجه حول بقائي في المنزل وطردي، فقد قرر أن يخرجني من بيته، الذي هو بيتي سابقا، فلم يعد يتحمل مصاريفي! اجتاحت كلماته كياني كالصاعقة وبقيت تدوي داخلي.

أحسست كأن أنوار العالم انطفأت، وتركتني في ظلمة لا سبيل للخروج منها، كانت زوجه تترجاه وتطلب منه أن يتركني بغية عدم التعرض لسخطي، فلم يتبق من حياتي إلا أيام قلائل. لم أعرف ما أفعله وقتها، ثم شعرت بقدماي تجرانني للخارج، وأجر معهما أذيال الصدمة والضياع، منقذا ما تبقى من كرامتي التي مرغها في التراب أمام زوجه. بدأ يهذي بكلام كثير في يأس بالغ وذهن شارد، في عالم قذف به إلى هامشه فجأة.

جلس القرفصاء في مكانه بعدما تكاثر عليه الهم ثم نام. غابت النجوم في رحم الغمام المثقل بالماء منذرة بليلة هاطلة من ليالي دجنبر الماطر. وأيقظته قطرات باردة لامست رأسه المشتعل شيبا، استجمع قوته ولملم نفسه، وركض يحتمي تحت الأشجار من زخات المطر.

بصوت خافض، والكلمات لا تزال تنخر في رأسه كالمثقب، طفرت من عينيه دموع حارة وقد زادت ملامح الأسى. تابع كلامه:

إلى أن وصلت إلى هنا لأكمل حياتي بعيدا عن كل من أعرفهم.

أحس بانشراح كأن جبلا كبيرا كان على صدره وقد زال، فمنذ أن ولج مركز الرعاية لم يفصح عما يقض ذاكرته. فتح عينيه فوجد نفسه في ركن القاعة الخاوية وحده. لم يكن أي مساعد اجتماعي بجواره، لكنه شعر بعد المشهد الأخير برغبة في الإفصاح عما يشغل ذاكرته، فلم يتردد في ذلك. نهض من مكانه مستندا على الكرسي مغادرا القاعة التي بدت كئيبة على غير عادتها، وظلّ الشاي البارد على الطاولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المُخبر

نصف ساعة مرت، ولا زال الرجل الضخم مهيب المظهر، الشديد السمرة، ذو الشارب الكث والوجه الحليق جالسا قبالتي في محطة القطار، بزي الخارجين من الاجتماعات المهمة، يتفحصني بأعين يخفيها بنظارات سوداء، ما نظرت إليه إلا أشاح بوجهه عني. المسكين يحسب أني لم أنتبه له وهو يتصرف كتصرف المخبرين القدامى، ينظر من وراء الجريدة العتيقة، والتي غالبا تكون لأحداث مضى عليها قرن من الزمن، يطل بنظارته من خلف الجريدة، عندما أتظاهر باللعب بالهاتف، مغفل حقا.. أفعاله مفضوحة كمن يغطي جسمه خلف شجرة، وتظل أذناه ظاهرة للعيان..

أعلم جيدا أن زملائي في العمل يريدون الإطاحة بي، فإنجازاتي ملأت قلوبهم غلا وحقدا، وأخذوا يشيعون عني الإشاعات يمنة ويسرة، رغم ترددها على مسامعي مرارا تجاهلتها، فالراكب لا يلتفت للمحيطين بالقافلة.. استمررت فيما أقوم به غير ملتفت لأباطيلهم، فالذين ينظرون إلى الخلف أثناء مسيرهم يسقطون وينتهون.. وهذا مطمحهم، ولن أمكنهم من رؤية هذا اليوم. كلهم يتمنون ذلك بشدة، فنظراتهم دائما تشي بالغل الذي يشحن قلوبهم، رغم ابتساماتهم الصفراء التي تطفو أحيانا على شفاههم، ورائحة نفاقهم وخداعهم أزكمت أنفي، فتجاهلتها.. لحظتها اعتقدوا أني أجهل نواياهم، الواضحة وضوح شمس الظهيرة في شهر يوليو.

تهيأت الشمس للرحيل. صاحب الجثة الضخمة والزي الرسمي، يواصل حدجي بنظراته، ينتظر الفرصة المواتية للانقضاض علي، رأيت حذاءه الكلاسيكي، وتأكدت من حذائي، فخطر ببالي أن أطلق ساقي للريح، لست من النوع الذي يحب المجازفة، غير أني كنت مرغما على ذلك، نظرت إليه وقد اقتضبت ملامحه، كمن ذُهِلَ، وامتلأتْ عيناي بالغضب، ثم ابتسم ابتسامة طفيفة كالأبله الذي لا يعلم شيئا! فأطلقت لحنجرتي العنان وصرخت بما أوتيت من قوة، ودون أن ترمش عيني:

لو أردت أن تمسكني، الحق بي. وأطلقت رجليَّ للريح...

قذف بالجريدة المتهالكة جانبا، ولحق بي، كان توقعي في محله، عرفت أنهم سيرسلون من يتتبعني، ويراقب تصرفاتي، لم يكتفوا بالتنغيص علي في ساعات العمل، وأرادوا إحالة حياتي كلها إلى مطاردات. اكتشافاتي الأخيرة جعلتهم يتعثرون في خطواتهم، وتنفضح معها خططهم، كل أقنعتهم سقطت، وأصبحوا بلا وجوه أمامي.. جريت بكل قوتي، منطلقا بلا هدف، غير ملتفت، فالالتفات في مثل هذه الحالات يعني شيئا واحدا؛ تأخري وانقضاضه علي..

لن تلحق بي، لن تجرؤ على الإمساك بي، فأنا أرتدي حذائي الرياضي، وأنت ستتدحرج بعد قليل بحذائك الكلاسيكي.. هكذا هتفت، وأنا أجري، وأجري.. المنطقة كلها خالية تماما، والشوارع شاسعة، لا يوجد مكان يمكن الاختباء فيه.. مما يجعل اختيار عدم التوقف أمرا حتميا، الفرار ولا شيء غيره.. كانت فكرة سيئة حينما

قررت أن أهرب في هذا الوقت، ومن هذا الشارع الجانبي للمحطة... ليس هذا وقت تقييم هذه الخطوة، إن نجوت منه، حينها يمكن أن أقيمها...

لم تمنعه البدلة وربطة العنق من اللحاق بي، والجري بسرعة مذهلة، حيث أوشك على الإمساك بي.. أسمع صوت لهاثه خلفي يقترب، كأنه سينقض علي، فأضاعف مجهودي.. هذا الضخم الذي حسبته لن يقدر على الجري، لا زال يلحق بي! تمكن مني التعب، ابتلعت ريقي بصعوبة، وحاولت استرجاع أنفاسي، والتفت..

مع الالتفاتة إلى الخلف شعرت باصطدامي بصخرة كبيرة، وتدحرجت على الأرض، مخترقا أشغال التهيئة على القنطرة. اجتمع حوله العمال، فعلموا أنه قد فارق الحياة. تفاجأوا حينما رأوه يجري ويصيح في شارع خال من المارة؛ لن تمسك بي، لن تلحق بي... ولم يكن غيره في الشارع، وما إن تتبعوا فراره حتى هوى على رأسه من علو أربعة أمتار، وسبح في بركة من الدماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الموعد

صعد الرجل العشريني الدرجات، بعدما بسطت العتمة كفها فوق المدينة النائمة، وقبل أن يصل إلى رأس السلم وقف ليلتقط أنفاسه ثم استمر في الصعود، لا يُسمع إلا صوت خطواته وهي تخفق على السلم، إلى أن وصل وفتح الباب، ثم علق معطفه على المشجب، وألقى بنفسه على الأريكة الجلدية الوثيرة، كان يوما متعبا، متعبا جدا، بعد العمل لما يزيد عن اثنتي عشرة ساعة، منذ شهور وهو على هذا الحال، تراخى في كرسيه وأحس بثقل يتمدد في جسده، شعر برغبة شديدة في النوم، وأخذته غفوة بعدما استشعر دفء الأريكة ونعومتها، إنها اللحظات القليلة العائمة التي تسبق النوم مباشرة.

استيقظ على صوت أغنية منبعثة من التلفاز، لملم نفسه وتوجه ليطفئه، إذ به يرى زوجته مستغرقة في مشاهدة الفيلم، ولم تعره اهتماما، اكتفت باستراق نظرة إليه وتابعت مشاهدتها.. لم يدرِ كيف تعالت الأصوات وبدأ الصراخ، جلبة وضوضاء، ثم صرخة مدوية نسفت الصمت السائد، انتفخت فيها أوداجها، واندفعت كلمة كما يندفع البركان، مزقت الأحشاء وجرفت كل سنوات الحب، مبعثرة العواطف والقبلات.

اكتسحها حزن يشبه الطعنة، وبدأ وجهها يتفصد بالعرق، أحست بهول الفاجعة، وبتحطم الأحلام الوردية فوق مستنقع الصراخ الطويل والقلق المستمر.. جلس ناظرا حواليه كمن وقع في إغماء طويل، وشعر بغصة عريضة تسد حلقه كأنها نصل معقوف منعه من بوح أي كلمة، وادلهم المكان في عينيه، واللون الباهت ساد ناظريه. بدت ورود المزهرية شاحبة وأقل جمالا، تشكو قسوة وجفاف قلوب أصحابها. عقدة المسبحة أصغر من حباتها، ولكنها إذا انفكت كرت حباتها واحدة تلو الأخرى، لقد كرت المسبحة فجأة بالطريقة التي لم يتوقعها. نظر إليها من طرفي عينيه؛ كان وجهها مشدوها أميل إلى الاصفرار، وكانت عيناها تتدفقان بالدموع.. الدموع! الدموع لا تستطيع أن تصلح قلوبا تحطمت، كل دموع العالم لا تستطيع أن تحمل زورقا صغيرا يتسع لزوجين، ولو ظل الإنسان يبكي طيلة حياته...

هل توقع حصول هذا الأمر؟ تساءل في خلده، فالأمور قد اختلطت، الماضي يتداخل مع الحاضر.. حلقات متصلة من القدر لو فقدت حلقة واحدة لاختلفت مصائر شتى. لم يتوقع أن يمشي بهما حصان الحب الجامح ويركلهما بعيدا...

طلقني... طلقني. انطلقت الكلمة تدق في رأسه كالناقوس. كان للحروف المعدودة وقع الصاعقة عليه، وجاء المستقبل الراعب بكل ضجيجه. هل كان يعرف أن هذا الأمر سيقع؟ هل أحس ذلك الشيء الفاجع قبل أن يحدث؟

أحيانا يحسب المرء أن قصة ما بدأت فإذا بها تنتهي بغير إذنه، إن مستقبل إنسان كامل تراه فجأة متعلقا بحادث صغير لا قيمة له. ألا يمكن أن تكون الليلة مجرد حلم طويل ممطوط؟ وكابوس لزج يفرش نفسه فوقه كأخطبوط هائل!

ظل واجما مرتعد الأوصال في مكانه محاولا عدم تصديق ما سمع وقلبه كأنما يصعّد في السماء، عجز عقله عن التفكير، وارتد إلى الوراء مدهوشا مطعونا. كانت دهشته قد اتخذت شكل انهيار مهيض الجناح. لقد مضت اللحظات بطيئة وقاسية، تارة يقول لنفسه: بلى، عرفت ذلك قبل أن يحدث، وتارة يقول: لا، أنا أتصور ذلك بعد أن حدث. أفكار وأوهام وتخيلات... لاَمَ نفسه كونه لم يحضِّر جملة يرد بها، ودارت الزوبعة دورتها الغاضبة ثم صدمه الجدار فسقط كأوراق الأشجار في الخريف.

بقي قلبها ينبض بشدة في جسدها كالوتر المشدود، أحست بالتؤبة وبدت الغرفة مهجورة لا يسمع فيها شيء غير دقات ساعة الحائط، تدق خطواتها الباردة كصوت عكاز مغرد بلا توقف.. تدق، تدق، وتدق.. وخفقان قلبها في تزايد، أعادت تلك الدقات حفيف كلماتها الأولى إلى الساحل، تذكرت كيف بدأت قصة حبهما بطريقة كلاسيكية عند أول نظرة، حيث التقيا أول مرة عند التقاء جزرها بمده.

لم يكن شيء أجمل من عينيه، وثغره عندما نطق بالعبارات. ثم بدت السنوات الماضية مجرد كابوس انتهى على صورة مفزعة، ورنت الكلمة في أذنها: «طلقني، طلقني...».

سأل نفسه: ما معنى هذه الكلمة؟ وكان مثل من فتح مصراعي شباك أمام إعصار غير متوقع، فأخذ رأسه بين راحتيه يحاول أن يوقف ذلك الدوران المجنون والإرهاق المر دون أن يجرؤ على مواجهته. انبطح الحزن على جبينه، وتصبب العرق باردا على جسده، وانطلقت أسئلة حائرة داخله؛ أيُعقل بعد هذا الحب أن تكوني المتسببة في خراب صدري وبعثرة حياتي ودفن همومي داخلي؟ ويتحول فمنا الذي ضم قصتنا خصيمنا في المحاكم، وتحوم حولنا شياطين الكراهية والبغض والقسوة، بعدما حامت حولنا ملائكة الحب والرحمة! هل حب سنوات سيذوب كقطعة جليد في ثوان قليلة؟!

ارتجت القلوب، وعذبت الأرواح، وشقيت العقول. هذه اللحظة؛ سبقتها شهور من التفكير لفصم هذه العلاقة، بدأت بتوقف المشاعر وتجمد العواطف وتصلب الوجدان، ثم نَشبت مخالب الكراهية أظفارها في قلبيهما، ليُعلنَ عن فشل رجل وامرأة فشلا في تكريس المعنى الحقيقي للحب.

احتوت رأسها بين راحتيها منكفئة في مقعدها، وصوتها الخافت يبكي بما يشبه الصمت، والدموع الحارقة تسد حلقها. دارت السماء بها دورتها وزلزلت الأرض زلزالها، لا تلبث أن تمسح دموعها حتى تتساقط غيرها، سابحة داخل ذهول صارخ بصمت كسيح. شعرت بالخوف والضياع قد مدّ خيوطهما غير المرئية، فتعطلت مشاعر طيبة، وحلت مشاعر لا يحملها الإنسان إلا لندّ أو عدو، وجاء الماضي يجر حقائبه ليستوطن في عقلها. فغياب الحوار لأزيد من ستة أشهر، وعدم رؤية بعضهما البعض إلا أحيانا، بعدما انغمس في عمل يظل يومه مرهقا فيه، جعلها تتهال على مشاهدة الأفلام والمسلسلات التي ترسم الحب الوردي بعيدا عن

الواقعية. وطمحت في أن يتحول زوجها إلى بطل فيلم ويسعدها كما يسعد البطل زوجته.

استيقظت الأم فوجدت ابنها غارقا في دموعه والعرق يتصبب عليه صبا، ترتعد أوصاله ووجهه أميل إلى الاصفرار.

كعادتها لم تحس إلا والدموع تنهمر على خديها ساخنة متحسرة على فلذة كبدها وقرة عينها، الذي لم يعرف راحة أو طمأنينة منذ ستة أشهر بعد آخر لقاء مع زوجته في المحكمة، كل ليلة يتكرر السيناريو نفسه، رغم المسكنات، ورغم كل المحاولات في التخفيف عنه. فكما قال المعالج النفسي: «إنه سيحتاج الكثير من الوقت ليزيل عنه إحساس الذنب، ويعود مرة أخرى لتقبل الواقع واستيعاب التغيرات التي طرأت على حياته».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الباب

تعبت من البحث عن أنخيلا، ابتداء من حينا إلى الأحياء المجاورة بلا أثر يُذكر. كأن الأرض انشقت وابتلعتها. أمضتْ معي ما يقارب ثلاث سنوات، واختفت عشية البارحة! كانت تختفي عن الأنظار أحيانا، لكن سرعان ما تعود. تمكن مني التعب، فقصدت عتبة أحد المنازل، وجلست أسترد أنفاسي. أعوام من الخمول جعلت المجهود القليل كأشواط من الجري، لطالما خططت لبرامج صباحية أسترد فيها لياقتي، فظلت حبيسة ذهني، دون أن ترى ضوء الشمس.

الحي فارغ، ما إن جلست حتى رأيتهم يجتمعون أمام باب إحدى المنازل المجاورة كأنهم أتوا لإعلامي بخبر عن أنخيلا. هالني المنظر ولم أفلِح في إبداء أي تفسير. أزيد من عشر قطط رمادية اللون، تمشي في مجموعة بانتظام غريب -القطط والنظام! لا أظنهما يجتمعان في منظر غير هذا- متجهات نحو صحن من حليب بالكاد تكفيهن. حينما كنت أقدم لأنخيلا الطعام كانت تملأ المكان قفزا ومواء، وأولئك استمروا على الطريقة نفسها ولم يبرحوا مكانهم! المنظر الذي أراه أمامي لم يجعلني أنسى أنخيلا وأقصد قطة منهن والعودة بها للمنزل مكانها، بل على العكس من ذلك تماما، زادت رغبتي في البحث عنها وإحضارها إلى هذا المعسكر، فمن يعلم قد تتعلم من فعلهن أو لتشرب هي أيضا من الحليب. فربما يكمن فيه السر! ربما..

قاربت الشمس على المغيب ولم أبرح مكاني. مرت ساعتان وكل شيء على حاله؛ القطط، الحي الهادئ الفارغ من المارة... فجأة وفي ذلك الصمت الرهيب، وقت تلطخ السماء باللون البرتقالي، فُتح الباب مصدرا أزيزا ودخلت قطة تلو الأخرى، بنفس الانتظام الذي شُرب به الحليب، أو أكثر قليلا.. فغرت فمي عن آخره وظللت مشدوها، ما هذا الفيلم البئيس الذي تدور أحداثه أمامي في صمت غريب، ينقص فقط الموسيقى التصويرية وسيكتمل المشهد المرعب. بقيت منتظرا ذلك الأزيز الأول ليُعلمني بإغلاق الباب، فهذا ما شاهدته كثيرا في الأفلام. لكني لم أسمع صوت أزيزه.

اختفى اللون البرتقالي من السماء، كما اختفت القطط، وجاء الهلع يجر حقائبه. هذا ما كان ينقص المشهد حتى يصبح مرعبا، أن يرخي الليل أستاره. ما معنى ألا يُسمع الأزيز؟ لا أعلم! غير أنه لو أقفل الباب، لأقفلت معه مخاوفي التي شَرعت تنهش فيّ من غير هوادة. أجلت بصري باحثا عن مصابيح فرأيتها محطمة، كنت سأسب شركة الكهرباء وأرجأت ذلك إلى أن أجد أنخيلا. أحسست برغبة جامحة في أن أطلق ساقيّ للريح! فالمشهد المرعب لم يكن ليكتمل دون مصابيح محطمة. وهنا فقط أحسست بدبيب غريب يسري في جسمي. ومازال الباب لم يصدر صوتا!

اخترت ألا أبقى مكتوف اليدين وأرهق ذهني المتعب، بأن ألقي نظرةً على الباب الذي لم يصدر صوتا. بخطوات لا تمت للثقة بصلة، خطوت في اتجاه الباب،

اقتربت من البيت، وأملت رأسي قليلا بتلك الحركة المشهورة في التلصص، لم أصدق ما رأيت، الباب لم يكن موجودا! سمعت مرارا عن أرواح تسكن القطط، لكني في كل مرة أنكرت ذلك بشدة، فهذا لا وجود له على أرض الواقع. هذا ما كنت أعتقده قبل اليوم، وها أنا اليوم أقف على خطأ اعتقادي، فلا تفسير لما وقع أمام ناظري، غير أرواح شريرة تملّكت القطط البريئة وربما أنخيلا معهم. أنخيلا! بسببها وصلت إلى هنا ونسيتها! بقائي ساعات في هذا الحي البئيس أنساني كل شيء. شعرت بالدوار فما يقع أجهدَ عقلي، شعرت أنني سأسقط مغشيا علي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢)

نهض ذات صباح قبل زوجته، كعادته مع الاستيقاظ. حضر الفطور وهيأ المائدة، ثم انطلق يوقظها. رجعا حديثا إلى بلدهما، بعد العمل لأزيد من عشر سنوات في المستشفى العام بألمانيا. قررا العودة كي يقدما خدماتهما بثمن رمزي لأبناء المدينة، بَعْدَ ما عَاينُوه الصيف الماضي في أحد مستشفيات البلد.

هشام المريني، ٣٨ سنة، طبيب جراح تخرج في جامعة فرايبورغ بألمانيا قبل ثلاث عشرة سنة. متزوج من رباب البناني، ٣٧ سنة، تخرجت في الجامعة نفسها. تعرفا على بعضهما خلال دراستهما.. لفت انتباهه نباهتها وجديتها عكس باقي الطالبات المهاجرات.. استمر سنة بأكملها يراقبها، من غير أن يجرؤ على محادثتها، إلى أن جاءت آخر محاضرة من عام التخرج، فصارحها بما يحسه تجاهها، من غير مقدمات، وأنه يرغب في الزواج منها. كان يمر بضيق شديد وأزمة نفسية بعد موت والدته؛ جرّاء عدم حضوره مراسيم الدفن لتزامنه مع موعد الامتحانات. فكانت كاليد التي انتشلته من غمّه وهمّه بعدما اسود في عينيه العيش، وأرجعته إلى الحياة.

واصل مناداتها، وبقي نداؤه معانقا الخواء، لم تجبه ولم تفتح عينيها. هزها بكلتا يديه واستمر في مناداتها دون جدوى، تحسس شرايينها، تأكد من نبضات قلبها: ماتت! كلمة خرجت من فمه، ولم يفهما إلا بعد لفظها رغم اشتغاله في الطب، غير أنّ وقع هذه الكلمة على قلبه غيّرت معناها.

ماتت: بمعنى أنه لن يراها مجددا، وسيدفنها في التراب، أن لا حديث سيجمعهما، لا ابتسامة، لا عناق، لا ضحكات، ولا صوت... «لا، لا، مستحيل» وظل يردد اسمها؛ «رباب، رباب استيقظي، استيقظي، أفكار كثيرة لازالت تنتظر أن نخرجها إلى أرض الواقع، لا يمكن أن تغادري من غير وداع، رباب، رباب، يا شمعتي التي أنارت لي الدرب، ويا دليل ومرشدي، كيف سأعيش دونك! استيقظي أرجوك، فلا زالت المسيرة في منتصفها وأنا أستلهم قوتي منكِ، كيف سأكملها! لا أقدر على العيش وحدي، أنَسيتِ أننا تعاهدنا أن نبقى مع بعضنا وأن لا شيء سيفرقنا! ها أنا أناديك ولا تجيبينني، لم نتفق على هذا! لا أستطيع العيش من دونك..

رباب، رباب...»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٣)

استعدت بعضا من وعيي، وقرع طبول يدوي داخل رأسي. وجدت نفسي مقيدا بحبال غليظة على كرسي خشبي، في بيت شبه خالٍ من الأثاث، وأسئلة عطشى لا تجد من يرويها. أحس بحلقي جافا كأني جريت كيلومترات، وأرغب في من يعطف علي بشربة ماء.

أوراق مبعثرة، حاسوب على مكتب خشبي، وطابعة أوراق، مع إنارة خافتة من مصابيح واهنة، وسرير يتوسط المنزل مغطى بثوب أبيض. والقطط! جالسة بهدوئها الغير اعتيادي. ورجل بعظام بارزة من وجهه مع لحية مبعثرة كأنه عاد من مقبرة، يبدو أنه صاحب البيت. يقرأ ورقة في يده، ونظارات طبية على أنفه الحاد، حركاته تشي بتعب وإرهاق شديدين، هالات سوداء اتخذت من أسفل عينيه موطنا لها.

لم يلحظ استعادة وعيي إلا بعد مدة، بعدما طلبت ماء يروي حرارة حلقي، كررت طلبي كثيرا، فتمكن من سماعي. كان مستغرقا في قراءته للورقة التي في يده والأوراق الموجودة على مكتبه، ترددت في البداية، لكن اشتعال حلقي لهيبا لم يجعل للتردد مكانا. مدَّ إليَّ يده بإناءٍ من ماء، يُشبه تماما ذلك الإناء السحري الذي تجمع حوله القطط في أول الليل، فانكببتُ برأسي عليه في نهمٍ دون ترك مجالٍ للتقزز أو التساؤل عن مصدر الماء...

«لا تحبون أن تتركوا الناس وشأنهم! لماذا تحبون التطفل وتعكير حياة الآخرين؟ متلصصون، لم تستطيعوا تغيير طباعكم...» جاء كلامه بنبرة غير مستقرة مع تأتأة واضحة. خجلت من نفسي ومن تصرفي الأرعن. لا أدري لماذا رغبت في معرفة هل الباب مفتوح أم لا؟ ما الذي كان سيحصل لو أني ذهبت دون معرفته! سحقا، صدق جيفارا حين قال: «لا تسألني عن شيء أخفيه عنك، إن لم يكن ظاهرا لك، فهو غالبا لا يخصك».

قاطع أفكاري بالنبرة ذاتها: «لا تبحث عن اعتذار، ولا عن تبرير، فمن يلقي نظرة على بيوت الآخرين، يستحق ما سيقع له، تعشقون التلصص. ماذا تريد أن تعرف؟ ستعرف، وتأخذ السر معك إلى قبرك. من يدري قد يأتي أحمق أو حمقاء لإنقاذك.. » وأتبعها بضحكة مخيفة. في هذا الوقت بالضبط، علمت أني في مأزق لا نهاية له، أو لأكون دقيقا؛ فيه نهاية لي. تحدثت وصوتي يرتعد رهبا: «لا، لا، لم أقصد التلصص، فقط لم أسمع أزيز الباب...».

«جئتَ قبالة الباب لتراه؟ وانطلق ضاحكا، هل تعرف؟ لمْ أضحك منذ مدة طويلة، خلت أنني افتقدت القدرة على الضحك. كانت رباب صادقة حين قالت عنكم: «شعب يعشق التلصص حدّ الجنون، وتعكير مزاج الأحبة».

طأطأت رأسي خجلا، فلو أني أخذت بنصيحته، والتزمت الصمت أهون من التبرير بأشياء غير معقولة.. من قال إنها غير معقولة؟ لكن هذا ما حصل، لم أسمع صوت

إقفال الباب و... «أحمق، أحمق» خاطبت نفسي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٤)

نهض وقد تمالك نفسه قليلا، أقفل جميع النوافذ وأحكم إغلاق الباب. أخذ الهاتف واتصل برقم العيادة، أخبر الممرضة بأنهما أخذا إجازة لأمر طارئ، وسيسافر مع زوجته، وأغلق الهاتف. فتح الحاسوب وعكف على البحث، بعدما وضعها في المبرد والدموع تتقاطر من عينيه.

مضت الأسابيع الثلاثة مريرة، أسابيع من البحث المتواصل، لم يعرف النوم لعينيه سبيلا، منذ الصبيحة المشؤومة، لم يذق من الطعام إلا ما يعينه على البحث. كانت زوجته محبة للقطط كل صباح تفرغ لهن الطعام والحليب قبل أن تذهب إلى العيادة، واستمر هو على نفس النهج، حتى بعد موتها، بل أكثر قليلا.

وجه بصره نحو الغريب المقيد وخاطبه: «ماذا تقول أنت أيضا؟ هل ستحشر أنفك فيما لا يعنيك؟ رباب لم تمت هي فقط نائمة، وهبت لي استيقاظها، فأنا لم أنم منذ ذلك اليوم الذي تبادلنا فيه الأدوار. اليوم ستشهد اللحظة التاريخية، فبعد اعتكافي طيلة هذه الأسابيع، توصلت أخيرا إلى طريقة لتبادل الأدوار. محظوظ أيها المتلصص، ستشهد لحظة متميزة».

بدا كلامه كأساطير غربية عن تناسخ الأرواح وانتقالها. اخترت الصمت، فمن ينصت يستفد أكثر، هكذا أخبرني صديق لي في حصة لمادة التاريخ. اللعنة، هل هذا موضع أذكر فيه رتابة تلك الحصص؟

ارتجفت يده ارتجافة شديدة، وتبعها جسمه. واسترسل يكلمني: «هل ترى؟ اليوم سأقابلها وسنتبادل الأدوار، هذا ما هو مكتوب في هذا التقرير، انظر، انظر». وألصق الورقة في وجهي، استمر في حديثه، واكتفيت بتحريك رأسي بالإيجاب، لم أتمكن من قراءة المكتوب، بيد أني أقنعت نفسي أن الموضوع لا يهمني؛ كي لا أقع فيما لا يُحمدُ عُقباه. فجل تركيزي كان منصبًّا على فك الحبل من يدي.

«كنت متأكدا أني سأصل إلى نتيجة مبهرة، لم يصل إليها أحد من قبل، تستحق رباب أن تحتفل بهذه اللحظة، لهذا سأترك لها الفرصة وسأنام قليلا، من يدري؟ قد تجد طريقة لإرجاعي، وتصل هي إلى سبق آخر».

لم أبدِ أي رأي في الموضوع، ترهبني نظراته حال التفاته إلي بعينيه الغائرتين في محجريهما، ترهبني نظراته، فأحرك رأسي إيجابا.

ارتجف أكثر من قبل وهوى على الحائط باصطدامة عنيفة. لم أعد أفكر في شيء غير تفكيري في الهروب من هذا المأزق.. نهض مجددا، استجمع ما تبقى من قوته، وأمسك بيديه المرتعدتين تلك الورقة، وتحرك فمه بكلام غير مفهوم، استمر في ذلك، وأنا سابح في أفكاري، باحثا عن طريقة للخلاص. بعد تمتماته بكلام غير مفهوم، أزال الغطاء على السرير الذي يتوسط البيت، فظهر وجه امرأة عليه خطوط ورموز حمراء، يظهر من حالها أنها ميتة.

وقتها فقدت السيطرة على مثانتي، بعد محاولات بائسة في كبحها، استسلمت في الأخير من شدة الخوف.. استمر في قراءة الورقة بصوت عالٍ إلى أن انتفخت أوداجه وانطلقت القطط في موجة مواء صارخ، ثم سقط مغشيا على حافة المكتب، وانتشر السائل الأحمر الساخن على الأرض.

تسمرت في مكاني جامد الأطراف، ألقيت بالدهشة جانبا، وحوّلت تركيزي إلى قيدي، فكرت أن لا طريق للخلاص غير تحريري من هذه القيود.. تخبط جسمه مرارا مصدرا خريرا، وانقطع صوته. تزايد مواء القطط، وانتفى النظام، وظهرت أنخيلا من بينهن، نعم، أنخيلا التي كنت أبحث عنها.

أخيرا، تمكنت من التحرر، هرعت نحوه، أتفحص نبضه ودقات قلبه، كان الوقت قد فات. أمسكت بالورقة التي تلطخت بالدماء، فلم أفهم ما كتب، سمعت كثيرا عن خط الأطباء الذي لا يُفهم، غير أن ما كُتب لا أظن له علاقة بالطب من قريب أو من بعيد..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الغريب

«ماذا لو كان من تراقبه وتتبعه، يتبعك ويراقبك أيضا، ويتابع ما تنشره ولا تعرف عنه إلا القليل».

جالسا قبالة الورقة والقلم منذ ساعتين، ولم أكتب حرفا، استعصت علي صياغة أي شيء. تقرير واحد وأنهي سلسة التقارير التي بدأتها قبل ثلاثة أشهر، وأرتاح من التعب الذي رافقني طيلتها، صدق من قال إن مهنتنا مهنة المتاعب، فكل مقال إلا وله الآلاف من الحكايات، وحكاية الليلة أبت أن تنتهي.. لم يتبق على مرور ثلاث ساعات إلا ربع ساعة، ولم أصل إلى طرف الخيط الذي سيَنظم هذا المقال. بداية الخيط وتنساب الكلمات بعدها من تلقاء نفسها، مستسلمة في انتظام، دون إكراه. بيد أن الليلة لها رأي آخر، تريد أن تنتهي دون نتيجة تُذكر، أو كلمة تُقرأ.

كلمة، كلمةٌ وتصير ناصية المقال بين يدي، أوجهها حيثما أردت. كلمة، ويزول هذا الحمل من فوق أكتافي وألقي به على الورقة القابعة أمامي. أمسكت فنجان القهوة بغية الارتشاف منه، علّ ألتمس بعض النشاط من الكافيين، فوجدته فارغا! أنهيت الفنجان ولم أحسن كتابة جملة، أو كلمة، أو حتى حرف!

رجعت لعنة الكتابة وألقت بتعاويذها علي، تحيطني من كل جانب، وتقيد يديّ بأغلال لا قِبل لي بها. أسندت ظهري إلى الكرسي، ورفعت رأسي إلى السقف؛ من يدري قد تسقط علي فكرة، تكون فاتحة لهذا المقال المنغلق! تأملت السقف وتلك الشقوق التي تغزوه مليّا، كمن ينتظره أن يُفتح، وتنزل الكلمات!

توقعت أنني تخلصت من هذه اللعنة قبل مدة، لكن غالبا ما أصطدم بخطأ توقعي، تذكرت توقعي الأول في الحياة، أن أصدقائي كلهم مخلصون، وأوفياء، ومع أول اختبار؛ أغلبهم رسبوا. كانت هذه أول مرة أصطدم بخطأ توقعي، وبعدها ألِفت التوقع الخطأ.

ثلاث ساعات وربع. أعدت نظري من السقف إلى الورقة وتأملتها علّ الحروف تظهر عليها، من يدري قد يكون عليها حبر سري ومقالة مكتوبة! لا زال الحال كما كان، قلم وورقة على سطح المكتب، لم يدنس القلم بياضها. نظرت مليّا، أجلت بصري طولا وعرضا، دون ظهور أي شيء، فطردت الفكرة من رأسي. هذا ليس وقت الأحلام والأساطير. أرجعت نظري إلى الورقة؛ فظهرت كلمات كأنها كُتبت بحبر خفي، فركت عيني خشية أن تكون قد تغشاها النعاس، وانطلقتا تتهيآن للأعاجيب، أيعقل أن أكون ذا قوة خارقة؟ ما إن أفكر في شيء حتى يحدث! استمرت الحروف والكلمات في الظهور بوضوح... فركتها مجددا، ونظرت للورقة، فوجدت أن الحروف شكلت كلمة، والكلمة تصاغ إلى جمل...

نهضت من مكاني كالملسوع، هرعت إلى الحمام وغسلت وجهي بالماء عسى النعاس يغادرني، أبصرت وجهي فرأيته استقى من لون وردة نوّار الشمس. بلعت

ريقي وعدت إلى الكرسي.

استويت على الكرسي، استرددت أنفاسي، وصوبت عينيّ إلى الورقة. وهن ضوء المصباح أكثر وأخذ يرتجف، ثم انطفأ، وانطلق في الأرجاء صوت الرعد. دائما ما تخونني الكهرباء في هذا الكوخ المنسي، في هذه القرية المهجورة توقعت أوضاعا حسنة، وكعادتي سرعان ما أسقط على خطأ توقعي. عملي مراسلاً صحفياً أكسبني مناعة صلبة، فقد أتممت الأشهر الثلاثة، وأنا أبعث للجريدة المقالات، وكل التفاصيل المتعلقة بالساحرة المتخفية في القرية؛ عدد زوارها، ومعاونيها، حتى اسمها الأصلي، غير الذي عُرفت به في القرية.

هرعت إلى النافذة، كما يفعل أي شخص انقطعت عنه الكهرباء، حتى يرى هل جيرانه أيضا معنيون، أم هو عطل خاص ببيته! القرية كلها غارقة في الظلام، غير بيتها، نعم، بيتها؛ كان يشع أضواء، كأنها استجلبت كهرباء القرية كلها إلى بيتها، ثم عدت إلى مكاني فزعا.

تك، تك، تك.. اشتعلت الشمعة، وجهتها صوب الورقة، وظهرت بلون أسود وخط بارز فقرة عريضة تفوح منها رائحة غريبة؛ «ماذا لو كان من تراقبه وتتبعه، يتبعك ويراقبك أيضا، ويتابع ما تنشره، ولا تعرف عنه إلا القليل». فتح فمه عن آخره، وسقطت الشمعة على الورقة واحترقت، وانطلقت منها رائحة قذرة، وهو متأرجح بين مصدق ومنكر لما رأى، ثم هوى مغمى عليه تاركا لألسنة النيران العَنان.

صباح يوم غد. بعد أن توقف هطول المطر، انتشر في القرية خبر أن الغريب القادم قبل ثلاثة أشهر، انتحر وأضرم النيران في بيت السيد أسعد، بعد أن اشتراه من السيدة -الساحرة- هناء. تحلق أهل القرية على المنزل مشدوهين، لطالما رأوه غريب الأطوار، إلا أنهم لم يتوقعوا أن يجرؤ على وضع حد لحياته، بهكذا طريقة. بالكاد تعرفوا عليه، فألسنة اللهب كانت مهيبة شديدة، ولم توقفها الأمطار، وكان لها صوت غريب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

القلادة المفقودة

مدّ الظلام ستاره الأسود على المدينة الصغيرة، وأعلنت الساعة عن منتصف الليل، لا صوت يعلو فوق صوت التلفاز. ارتشف من كأس القهوة البارد، ونفث الدخان الأخير من لفافة التبغ.

في لحظة شعر برهبة والعرق يتصبب منه، كاد أفراد العصابة أن يفتكوا به، لولا أن دخل فيلا «بريديكاريس» كي يختبئ منهم. توقف هنيهة يسترد أنفاسه، فإذ به يسمع اقتراب جلبتهم، لم يملك إلا أن يرخي ساقيه للريح مجددا وفي يده القلادة القديمة التي يبحثون عنها. الليلة مكفهرة، والسحب ملبدة منذرة بليل ماطر وعاصف، لا يعرف كيف سيتمكن من الخروج من هذه الغابة اللعينة. يتعالى شهيقه وزفيره، لكن لا مجال للراحة الآن، فلو أمسك به أحدهم لما ترك له عظما سليما، فقد أرهقهم كثيرا، ولا سبيل لعودتهم من غير القلادة. يسمع صوت الخنزير البري فيزيد من سرعته، لم يدر سبب تعلقهم بها لكن لا وقت للأسئلة في هذه اللحظة. الغرباء خلفه والقلادة في يده، ولا سبيل للخلاص الآن سوى الخروج من هنا.

في لحظة صمت سمع رنين الهاتف، نهض وكأن المقعد قذفه، ليجيب على الهاتف الذي قاطع مشاهدته للفيلم، رقم من غير اسم، فتح الخط، سأل المتصل عن منزل ماجد. لم يدر كيف خرجت الكلمة بسرعة: نعم، اطمأن على حالته، ثم ودعه وأقفل الخط. كانت مكالمة عادية، وتابع بعدها مشاهدة الفيلم.

لقد نفذ بجلده بأعجوبة وخرج من غابة «بريدكاريس» سالما ولم يُصبه أي أذى، لقد ضرب الخنزير البري أحدهم، فاشتغلوا برفيقهم عنه، فتوجه لمنزله بمنطقة مجمع البحرين «أشقار».

رنّ الهاتف مرة أخرى، نفس الرقم، فتح الخط. لكن لا صوت يُسمع، أغلق الخط. وقتها انقطع الاتصال بالإنترنت، وتوقف الفيلم، حاول تفقد الأسلاك وإعادة تشغيله لكن دون جدوى، رن الهاتف مجددا بنفس الرقم فتح الخط؛ لا صوت يسمع، فأطلق فمه بالسباب والشتم، وقبل إغلاق الهاتف سمع ضحكة طويلة وغريبة، هزّت أركانه. وانقطع الاتصال.

همَّ بإنزال الهاتف على الطاولة، وفوجئ برسالة على شاشته، فتحها فوجد مكتوباً فيها:

ماجد يا ماجد.

ذُهل مما رأى. تذكر لحظة رده على الهاتف بسرعة في محاولة منه للتخلص من المتصل بغية إكمال الفيلم. أمسك بالهاتف كي يخبر المتصل بأن اسمه ليس ماجد، وإنما هو خطأ منه، فُتح الخط ولم يسمع أي صوت، ثم اندلقت ضحكة دفعة واحدة، أقبح من التي سبقتها، وأطلق العنان مرة أخرى للسباب والشتم، أي ليلة هذه؟!

من يمزح معه هذا المزاح الثقيل؟ بدأت الأمطار تتساقط. حينها علِم أن الشبكة تعطلت بفعل الأمطار والرياح، وليست بفعل فاعل. يبدو أن هذا المطر لن يتوقف، وأن المشكل خارجي لا يتعلق بالأسلاك. أراد أن يُشعل لفافة التبغ، فإذا برسالة ثانية؛ «لا تشعل تلك اللفافة وإلا اشتعل جسمك كله، انهض وأخرج لنا القلادة». شعر بأوصاله ترتجف وفمه يلهج بالسب، لم يبال بالرسالة وأشعل عود الثقاب، فإذ به يسمع صوتا خافتا، ثم أخذ يعلو شيئا فشيئا. الضحكة نفسها التي كان يسمعها في الهاتف، تنتشر في أرجاء المنزل. توقف فمه عن السباب وبدأت أسنانه تصطك مع بعضها. أحاطت به العتمة وتملكه الذعر. ما هذه الضحكة السمجة في هذه الليلة المهيبة الرهيبة! لم يحس يوما بما يشعر به الآن، أي قلادة وأي ضحكة لعينة يسمعها في قلب منزله؟ ودمدم يخاطب نفسه مضطربا.

لو كان معه أحد في المنزل لقال أن هناك من يمازحه ويريد إخافته، وإلا فكيف تكون القلادة في يد بطل الفيلم ثم يطالبه شخص مجهول بطريقة مخيفة أن يسلمه القلادة؟ لكن الجميع سافر قبل أيام، فأي علاقة بينه وبين البطل، وأي علاقة بين حياته وبين الفيلم، بل أي علاقة بينه وبين هذا المتصل اللعين، رسالة أخرى تصل:

«توقف عن اللعن والشتم، ولملم نفسك وأخرج القلادة المخبأة في درج ملابسك».

سمع صوتا شديدا وأخذت ترتعش معه الكهرباء، أي ليلة هذه؟ قفز يبحث في دولاب صغير عن شمعة يضيء بها غرفته، تحسست يده شيئا غريبا، أخذ الشمعة باليد اليمنى والشيء الغريب بيده اليسرى. بحث عن عود ثقاب وأشعل الشمعة فانتشر النور في الغرفة. التفت إلى يده فرأى قلادة لم يسبق أن رآها في غرفته من قبل. تساءل: كيف وصلت إلى غرفته؟!

دفع القلادة بقوة إلى الأرض. فسمع خبطا شديدا على باب الغرفة، ارتعدت كل خلية في جسده، ازداد العرق وأحس بأطرافه قد تجمدت.

شعر بأن كل شياطين الأرض اجتمعت خلفه، حين سمع وقع الأقدام تتجه صوب غرفته. لم يعد قادرا على الحركة. الخبط يتزايد، والحيرة تمزق كيانه، والهواجس تلعب بعقله. لم يشعر بنفسه إلا وقد ارتمى على الأرض؛ يضم القلادة بشدة إلى صدره. توقف الخبط، فإذ برسالة جديدة تصل: «القرار قرارك ولا مجال للفرار».

أي لعنة هذه؟! رجع بتفكيره إلى البداية، فبدأ يسأل نفسه، لماذا أجبت بأني أنا ماجد! ضحكة أفظع من سابقاتها تقطع تفكيره. وصوت عقارب ساعة منهوكة تأتي من أقصى الغرفة. لم يعد يسمع شيئا غير أنفاسه. كان سيطلق العنان مجددا للسب والشتم، فتذكر الرسالة التي حذرته، يحاول أن يفتح القلادة كي يرى ماذا يوجد فيها، فوصلت رسالة أخرى: «إن أردت أن تعيش حياتك سعيدا، لا تحاول معرفة ما بداخلها، وإلا أصابك ما أصاب من سبقك».

استجمع قواه وعاود الاتصال. من غير مجيب. عزم على معرفة ما في القلادة، متجاهلا الرسالة التي حذرته، فانطلقت أصوات غريبة في أرجاء المنزل، وارتفع وقع الخبط على باب الغرفة. صوت قوي، أوقف كل الجلبة. هذه المرة صوت

الرعد. وانطفأت معه الشمعة. تعالى شهيقه وزفيره وبدأ يحس باختناق شديد. وانقباض رئتيه. الدموع تنهمر من عينيه بغزارة لا يدري سببها. وسعال شديد يكاد يخنقه. بالإضافة إلى حرارة تلف جسمه. والخبط في تزايد.

أخيرا تمكن الجيران من كسر باب الغرفة، بعدما أنهكوا الباب بالدقات، ليجدوا ألسنة اللهب، والدخان قد ملأ أرجاء المكان وعسرت الرؤية، وسمعوا صوت السعال، فتمكنوا من رؤية معتز والنيران تكاد تلفحه، وهو مغمى عليه والدموع تنهمر من عينيه بسبب الدخان، وتعاونوا فيما بينهم لإطفاء ألسنة اللهب، وأخرجوه من الغرفة حتى يتمكن من استنشاق هواء يجدد انتعاش رئتيه، وهو يتقلب تقلبا شديدا. استعاد وعيه في النهاية، حاول فتح عينيه ليرى مكانه، ويحاول أن يتذكر ما وقع بعد الرشفة الأخيرة من كأس القهوة الباردة، وتلك اللفافة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ولادة جديدة

أنا وقهوتي والغرفة الشاحبة، جلست أمام المكتب على كرسيي المتحرك، وفي يدي قلم أسود، عبثا أحاول أن أكتب شيئا. رغم رشفات القهوة السوداء، لم يهدأ بالي بعدُ، ولم أحسن كتابة جملة واحدة. بين مد وجزر، أدافع القلم ويدافعني. كلما أمسكت به ارتجفت يسراي وسقط منها، لم أكن يُسرى من قبل، لكن الآن لا تحمل يمناي إلا ثلاثة أصابع.

اسمي فرح، ٢١ سنة، وحيدة أسرتي، أقطن في هذا المنزل وحدي، فقد غادرني والدي في حادثة نجوت منها بأعجوبة قبل أربع سنوات، أو لأكون صريحة معك، لم أنجُ وإنما مِتُّ فيها. ليس تعبيرا مجازيا؛ فمنذ ذلك اليوم تغيّر كل شيء في حياتي، بُترا أصبعين من أصابع يدي اليمنى، وقطع الزجاج طرف لساني، وتحولت إلى مسخ يلازم كرسيه المتحرك، يحاول الأطباء إقناعي أنني لست مصابة بأي مرض عضوي يمنعني من الحركة وأنه مجرد مرض نفسي، لطالما علمت أنهم يحاولون إعطائي آمال كاذبة فهذا ما يفعله الأطباء دوما.

أعتذر لك عن هذا الكم من التعاسة والقبح اللّذان ألقيتهما عليك مرة واحدة؛ أردت أن تعرف طبيعة المسخ الذي يتحدث إليك يا إبراهيم. لتكن من تكون، المهم أنك قد ساقتك الأقدار كي تقرأ هذا البؤس فأرجو أن تتحمّلني لدقائق، ثم احذفني من ذاكرتك. لنفترض أن هذا هو اسمك. حينما تعطلت السيارة في الطريق السريع، وتوقف أبي فجأة على يمينها. طرأ تغيير شقلب حياتي رأسا على عقب، فمن إنسانة بكامل أطرافها، وقوتها، إلى مسخ ينفر منه الجميع. آه لو أتيح لي حذف كل شيء من ذاكرتي وقتما أريد، لحذفت صرخات أمي وتأوهات أبي، لاقتلعت كل ما حدث ذلك اليوم من عقلي وقلبي.

ما إن توقفت سيارتنا، حتى صدمتنا شاحنة كانت تسير بسرعة جنونية، قذفت بنا على بُعد أمتار. دارت خمس دورات أو يزيد فمن هول الصدمة والخوف لم أعد أقوى على العد. لحظة توقفها تمكنت من مشاهدة الدماء منهمرة من رأسيْ أمي وأبي بعدما صُمّت أذناي من صراخهما وتأوهاتهما، لم أتفوه بكلمة، فما وقع أمام ناظري، أفقدني الرغبة على النطق، والقطعة التي اعترضت لساني أزالت تلك القدرة. لم أصرخ ولم أتأوه، لِما رأيت وسمعت.

دخلتُ في غيبوبة قال الأطباء إن مدتها كانت ستة أشهر، لا يهم فلم يعد للوقت قيمة ولا معنى من فجر ذلك اليوم، تساوَت الأحاسيس والأيام والشهور وحتى السنين؛ فقط أنتظر الوقت الذي سألحق بهما، فبعد وفاتهما لم يبق معنى للحياة.

لم أحضر مراسيم تشييع الجنازتين، لم أنظر لهما النظرة الأخيرة، صورة وحيدة بقت منهما عالقة في ذاكرتي من تلك الليلة، تأبى الزوال، وليتها زالت.

وليتني فقدت سمعي مع نطقي تلك الليلة فلا أسمع لقبي الذي نلته بعد خروجي من المشفى، صرت وحيدة بين أربعة جدران، وكلمة المسخ تتردد داخل المنزل ورأسي، حطمت جميع المرايا، فلا قدرة لي على النظر إليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٢)

الجميع متحلق حول الحاسوب، الأب والأم مجتمعان حول ابنتيهما وهي تترقب لحظة الإعلان عن نتائج الثانوية العامة، مضت ساعة ونصف على الإخبار الأخير أن النتائج قاربت على الظهور، ولم يظهر شيء! الجميع متوجس، وألسنتهم لاهجة بالدعاء. يرتعد قلب البنت، ويزيد خوفها لحظة توقف الموقع الرسمي عن العمل، فلا طاقة لها على الانتظار أكثر، أحيانا يساورها إحساس بأنها ستنجح، فكل المؤشرات لصالحها، الامتحانات كانت سهلة، ومجهود الفصل أيضا جيد، وأحايين أخرى يراودها شك، أنها لم توفق في الكثير من الإجابات، وأن الرسوب مصيرها. وتحضرها وساوس عن بيع نقاطِها لمن لا يستحق، فكثيرا ما سمعت عن حالات مماثلة.

أربع ساعات ولا زال الوضع على حاله، يشتغل الموقع لدقائق، ويتعطل لساعات. تتصفح موقع التواصل الاجتماعي، فترى صديقاتها، وهن يحتفلن بنجاحهن، بعد تمكنهنّ من رؤية النتائج، واشتغال الموقع الرسمي، فيزداد توجسها وترقبها أكثر، نام والدها على الأريكة، والأم ما زالت تدافع رغبة النعاس بالمسح على وجهها بين الفينة والأخرى، باثة الطمأنينة في قلب ابنتها.

وصلتها رسالة على الهاتف المحمول من رقم غير مسجل: «لم يحالفك الحظ، لكن لديك فرص أخرى». توقفت شاخصة حين قراءتها، من صاحبة الرسالة؟ أيُعقلُ أن أرسُب! حاولت الاتصال بالرقم، لا مجيب. زاد توترها، هدأتها أمها وهي تعاود الاتصال بنفس الرقم، دون رد. وهبطت دموع حارة على خديها. والأم مستمرة في تهدئتها.

رسالة أخرى: «مبـــــــــــــــــــروك لقد نجحت، سأنتظر الحفل». من الرقم نفسه، لم تدرِ ماذا ستفعل، هل ستفرح أم تبكي؟ أزالت أمها الهاتف من يدها، وضمتها إلى صدرِها باعثة الأمل في قلبها. أقفلت الهاتف، فلا وقت لمجاراة سلوك أرعن في الرابعة صباحا. هدأتْ فرح من روعها قليلا، وتمددت على الأريكة، أخذت الأم تُقلب الموقع، علّه يعمل وتظهر نتيجة ابنتها سواء بالنجاح أو الرسوب، خير من التأرجح بينهما. فجأة اشتغل الموقع، وظهر معدل النتيجة، بميزة حسن جدا، صرخت الأمِ فرحة، موقظة الجميع، فقفز الأب مذهولا، واستوت البنت في مكانها، وانهالت بالقُبل عليها مهنئة، وهي غير مصدقة لما يحصل. الآن يمكن للجميع أن ينام بكل أريحية. كأن جبلا زال عن عاتِقهم.

تمكنت من حصد مرتبة أولى على المستوى الجهوي، وقريبا سيتحقق لها ما رغبت فيه. سجلت اسمها في موقع معهد الطب، المعهد الذي رغبت في الولوج إليه كثيرا، وضعته نُصبَ عينيها واجتهدت ليلَ نهار وحصدت نقطة تمكنها من ولُوجِهِ برأس شامخ مع فخر واعتزاز. سحبت استمارة التسجيل الأولي من الموقع، ونسخت الشهادة الأصلية للثانوية العامة وجمعت ملفها.

رغم وجود المعهد خارج مدينتها، إلا أن والديها لم يقفا عقبة في طريقها، وافقاها على اختيارها، ودعيا لها بالتوفيق والسداد. فنصف التوفيق، الاختيار الحر المبني على رغبة جامحة وجهدٍ جهيد. رتبت أوراقها داخل محفظتها، وارتدت ملابسها، ثم التحقت بسيارة أبيها وتبعتها أمها. كانوا على موعد مع السفر إلى مدينة الرباط، من أجل إيداع ملف التسجيل. تساءلت في خلَدها عن جدوى الإيداع الورقي، مع وجود إمكانية الإيداع الرقمي، وبقيت أسئلتها معلقة بلا إجابات.

الفرح والبهجة يملآن جنبات السيارة التي تشق طريقها صوب معهد الطب. وجوه الجميع تعلوها سيماء السرور والسعادة، رغب والداها في مشاركتها أروع لحظاتها، وقررا السفر معا. فلحظات كهاته يجب أن تظل محفوظة في الذاكرة، يتذكرها الإنسان ما بقي فيه عرق ينبض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(٣)

مزقت أوراقا كثيرة، ولم تحسن كتابة حرف، لا تدري هل رغبتها في كتابة رسالة دقيقة ومختصرة هو السبب، أم أن مستواها تراجع ولم تبق لها القدرة على صياغة جملة ولا كتابة حرف. الشمعة تأكل نفسها، فالفتيلة التي أمنتها على قلبها آتت منها النار؛ اقتربتْ من آخرها، وتضاءل نورها. شردت تتأملها، وهي تحترق بلا مُنقذ، فكأنها أشعلت ذكرياتها وصبّت عليها الزيت. قذفت بالقلم من يدها، وأمسكت أذنيها، محاولة إغلاقهما؛ كمن يريد منع وصول صوت إليه. وأقفلت عينيها بشدة، كأنها لا تريد فتحهما أبداً، وصرختْ بأعلى صوتها.

وصرخت؛ علّها تدفع الصوت الذي يصل إلى مسامعها. والدموع الحارقة تسيل على خديها. تلوّن كل شيء أمامها بلون النار، وملأ سمعها تأوهات وصرخات تحاول تجنبهما من بداية الليلة، حسبت أنها تمكنت من ذلك، وها هي تقف على خطأ حسبانها. تردد المشهد من جديد، بدمائه وأشلائه المتناثرة، سقطت من على الكرسي، وهي تصرخ وتتقلب في مكانها، باحثة عن خلاص من الصوت الذي يقض مضجعها كل ليلة. صرخت حتى ظنت أن أحبالها الصوتية مُزقت، والدموع تتلاحق على خديها. احتوت رأسها بين راحتيها منكفئة على نفسها، شعرت بالخوف والضياع قد كبلاها بخيوطهما غير المرئية ولا طاقة لإزالتهما.

زال الصوت وفتحت عينيها. علِمت أن ما تحسه لن تسعه أوراق العالم ولن تكفيه أقلامه. زحفت على الأرضية واقتربت من المكتب، وأتت على ما تبقى من الأوراق والأقلام؛ مزقتهم وحطمتهم. أحست بحمل ثقيل ألقي عن كاهلها، علمت أنها ستتعذب بما تكتب، وأن العلاج بالكتابة غير مجدٍ بالنسبة لها، وأن كل ما سمعته عن هذا العلاج لا يعنيها في شيء، وأن حالتها متفردة، أو بمعنى أدق ميؤوس منها. لا علاج لها ولا خلاص إلا الموت.

زحفت على أرض الغرفة، واتخذت من إحدى زاوياها ملاذا تسترجع فيه أنفاسها، هدأ روعها قليلا، فتذكرت حضن أمها في هكذا حالات، فدخلت في نوبة من البكاء مجددا. نظرت إلى الشمعة فوجدتها تعيش لحظاتها الأخيرة. ثم أكملت زحفها في اتجاه سريرها، أخذت حبلا، وجدته قبل مدة في المطبخ، فتيقنت أنه سبب خلاصِهَا، عقدت عليه عقدة فالثانية والثالثة؛ لتتأكد أنه قويٌ كفاية لأداء مهمته، وراحت تجر نفسها في اتجاه الشرفة.

راودتها أفكار مشابهة كثيرا وسرعان ما تلاشت من ذهنها، غير أن هذه الفكرة عمّرت في بالها مدة طويلة؛ رغم طردها مرارا.

تمكنّتْ من الوصول إلى الشرفة بشق الأنفس، جسدها غارق في العرق حتى تبللت منه ملابسها، وغسلت الدموع وجهها الصغير. كان الليل مقمرا باعثا نورا جعل كل شيء واضحا. مدّت الحبل إلى الطرف الحديدي المعقوف، أعادت الأمر مرارا حتى علق به في الأخير. عقدت عليه عقدة وشدته لأعلى؛ حاولت أن تجعل الحبل قصيرا حتى تنجح محاولتها من المرة الأولى، وبصعوبة بالغة امتطت كرسيا عاليا بعد

محاولات فاشلة كأنها تريد أن تثنيها عما تفعله، ساعدها الكرسي في الوصول لطرف الحبل فدسته في عنقها.

تركت الكرسي وسلّمت جسدها الواهن للحبل، مرّ شريط حياتها مسرعا أمام عينيها وهي تتحرك يمنة ويسرة، جحظت عيناها، وبدأ لون جسدها بالتغير. شاهدتْ لحظات ترقبها ووالدَيْها نتائج الثانوية العامة، وفرحهما وحضنهما. الأحاسيس التي غمرتهما وتهلل بشائرهما، حضن أمها في الأوقات العصيبة وكلماتها الدافئة المفعمة بالأمل، نظرات أبيها المليئة بالإصرار والعزيمة. لو أنهما يريانها الآن لتحسرا على استسلامها أمام أول وأصعب اختبار لها.

في لحظة فتحت عينيها، وحاولت التشبث بالحياة مجددا، ظلت تقاوم وتحاول جاهدة التملص من الحبل حتى انقطع بمعجزة إلهية. فتحت عينيها كمن ولد للتو، أجالت بصرها فرأت القمر يشع نورا، كأنها لم تره بهذا النور من قبل، انفرج فمها عن ابتسامة فظهرت غمازاتها وظلت مكانها تبكي طويلا حتى شعرت بدبيب يسري في رجليها. وبعد عدة محاولات وقفت عليهما غير مصدقة لما يقع. هذا يعني أن الطبيب لم يكن يحاول فقط إعطاءها أملا للحياة، وإنما كان صادقا تماما. ودخلت في نوبة من البكاء والضحك وعدم التصديق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الليلة الأخيرة

رنت الصفارة معلنة أن الوقت قد حان، ابتلعتُ ريقي، وصوبتُ عينيَّ إلى الباب. سمعت وقْع الخطى القوية تقترب من الزنزانة، فُتح الباب وظهر الجلادان ببشرتهما السوداء، وعضلاتهما البارزة، مرتدين نفس اللباس؛ سروال أخضر، وحذاء أسود، لم تكن الألوان تعني لي شيئا، فقد تشابهت كما تشابهت الأيام قبلها، نظر لي أحدهما والحقد يفور من عينيه، وقذف لباسا في وجهي، وقال: «ارتد هذا».

أزلت اللباس المحلي الصنع -الذي خطته بيدي من الأكياس التي خصصت لجمع القاذورات- وارتديت اللباس الذي قذفه في وجهي، دون أي سخط. وضعا عصابة على عيني وأصفادا في يدي ورجلي.اللباس والعصابة أكسباني يقينا بأني لا زلت أُرعبهم، فكما أفزعتهم كلمتي، وقضّت مضجعهم، ها هي ذي نظراتي أيضا تفعل فيهم الأفاعيل، ويخفونها بهذه الخرقة.. لم أجرّ إلى المشنقة ولا ذرفت دمعة، بل توجهت إليها بإرادتي، وقدمين ثابتتين، وصدر شامخ.

بقيت وفيا لكلمتي؛ ولم تغرنِي المساومات العارية، رغم مراوداتها المتكررة. يقيني بأن ملايين الأرض إلى زوال، أكسبني قناعة لا تتصدع مع مرور الأيام، وتوالي السنين، كل المغريات لم تفلح، وحتى التعذيبات لم تجدِ نفعا.

مرور الأيام لم يزدنِي إلا عذابا، أحترق من الداخل أمام هذه المغريات التي تراودني عن نفسي كل يوم بزي فاضح، اجتمع الناصحون يهمسون: «أن ارضَ بوضعك، فالجميع يتغير ومبادئك غالية ما داموا يساومونك عليها، اِقبل ولا تعطِي الموضوع أكبر من حجمه، ووحدَك لن تستطيع تغيير الواقع...». كانت هذه آخر خطاباتهم لي. وأصبحتُ كلما أرى وجها أعرفه في غرفة الزيارات، إلا وعلمت ما سيقوله مسبقا، فأجيب العاشر كما أجبت الأول، وهكذا. أغلب من سمحوا لهم بالدخول، اشتركوا في مطلب واحد؛ دعوتي لقبول عرضهم، وأنهم أقوى وأنا لن أقدر عليهم، حتى زوجتي كانت أحيانا تطلب مني الأمر ذاته. طالبتُ مرارا الحصول على ورقة وقلم، عسى رسالتي تصل إلى الخارج، إلا أن الأمر ظل معلقا للفراغ، كانوا يعلمون جيدا أنه سلاحي الذي يرعبهم فلم يمكنوني منه. وقت الزيارات كنت أُجرَّد من أي شيء، غير سروال حظيت به أول يوم الاختطاف، الذي يسمونه قسرا اعتقالا.

لا مجال لامتطاء ظهرك إلا إذا انحنيت، وأنا رفضت ذلك، بعد جلسات صورية في محكمةٍ ليس لي الحق أن أدافع فيها عن نفسي، أو أن يكون لي محام يدافع عني!

في العلن لفقت تهم لا علاقة لي بها، وفي الخفاء حيث المحاكمة الحقيقية، تحت الضوء الخافت، والصوت المتحشرج، أزيلت المساحيق التجميلية، ووجهت إليَّ تهم تمس استقرارهم، وبتُّ أتعرض للتهديد المباشر بالقتل، بل حتى اختطاف زوجي واغتصابها أمام عيني. لكنني اخترت الصمود على أن أسقط في دركاتهم، أرادوا أن أكذِّب ما كتبت من قبل وتبرئة المتورطين. جميع الأدلة التي اعتمدت عليها،

والتحقيقات التي قمت بها، يريدون مني أن أتركها أدراج الرياح، مقابل ماذا؟ مقابل حريتي؟! وكيف أكون حرًا وعبدًا في الوقت ذاته!

مُنعتُ من الزيارات، أو قل المفاوضات، وتوقفت المحاكمات. صرتُ رقما صعبا في معادلتهم، حسبوا أنهم قادرين على أن يشتروا الجميع بالمال، لكن مبادئي كانت الاستثناء. كل محاولاتهم في الحصول على تكذيب خطي لما نشرته، وإخبارهم بمكان أدلتي باءت بالفشل.

منذ تحويلي إلى هذا القبر لم أر زوجتي، ولم أسمع عنها خبرا. وبينما الأبواب من حولي موصدة؛ أبواب الذكريات مشرعة. فكرت في أمرها كثيرا، وما قد تعرضت له في غيابي، فهؤلاء يمكن أن يقوموا بأي فعل، وفي الأخير تركت مشاعري جانباً كي لا أنهزم أمامها. وواصلت المقاومة.

وجدت نفسي ملقى في قبر يسمونه زنزانة انفرادية، أربعة جدران وباب حديدي يصدر أزيزا حال فتحه وإغلاقه، فيما بعد أسميتها سمفونية كي لا أتضجر منها، فالأشياء كما نراها من داخلنا، وكما نرسمها في لاوعينا. انتهت مسرحية المحاكمات العلنية، وجاءت المرحلة الأخرى؛ العذاب حتى الموت، أو النفوق كما يسمونه.

أنيسي في هذا القبر الظلام ولا شيء غير الظلام. لم أحظَ بمصباح يبدد العتمة التي تخنق المكان وتقتل إنسانيته، غير ضوء يدخل على استحياء من شق في الباب.

أمضيت أيامي الأولى في هذا القبر أعاني من هلاوس كادت ترديني قتيلا. ضيق المكان ورائحة الموت المنبعثة من الجدران التي تشي بمعاناة أحدهم هنا إلى أن فارق الحياة؛ جعلوا إطلاق الجحيم كـاسم لهذا المكان حقيقة لا مجازاً.

تعايشت مع الوضع، وهذا ما كان يزعجهم، ويقض مضجعهم، يبالغون في إذائي، وأبالغ في المقاومة، من أجل مبادئي، ومن أجل كرامتي.. لم أشأ أن أطيل التفكير في الوضع هنا، فيكفي الأزمة التي مررت بها أيامي الأولى، لا أحب أن أمضي أيامي أو قل سنواتي، وأنا ضعيف وسطهم، فلطالما ظهرت قويا شامخا. هل تظن أن من اقتيد بسبب مبادئه؟ سيتنازل عن كرامته؟!

اخترت لنفسي مكانا فسيحا وأويت إليه في ذهني حيت لا يقدرون على اقتحامه، ولا تدنيسه بقذاراتهم مهما بلغ جبروتهم. كنت أستمتع بالقصص التي أنسجها، وبالأبطال الذين يزورونني، يشاركونني أتراحهم وأفراحهم، ويؤنسون وحدتي، ننشد أحيانا كلمات فؤاد نجم:

شيِّد قصـورك ع المزارع، من كدِّنا وعمل إدينـــا

واطلق كلابك في الشوارع، واقفل زنازينك علينـا

واتقـل علينا بالمواجـع، احنا اتوجعنـا واكتفينـــا

كنت أنسى قبري حتى يصرخ أحدهم بوقت الأكل، وقتما شاءوا على النحو الذي أرادوا، يمنحونني خبزا قد افتقد طراوته منذ زمن، ودلو ماء عكر لا يصلح لشيء.

نفس الوجبة صباح مساء، مثل وصفة طبية.

لم أجرَّ إلى المشنقة، ولم ترتعد فرائصي، بل رافقتهم بصدر شامخ وأنفة. إيماني بأني متحرر رغم هذه الأبواب والأسوار، جعل تحطيمي معادلة صعبة، صعبة جدا. لم أفكر في الأمنية الأخيرة، فما جدوى أمنية لن أراها! ولم أحظ بمكالمة هاتفية أخيرة، فذلك يحصل في الأفلام فقط. فمن مُنع من أبسط حقوقه، كيف سيحظى بأمنيات؟!

أتوسط الحارسين في ممر طويل طول السنوات التي قضيتها هنا، رغم أنهم استطاعوا تصفيد يدي، وتعصيب عيني، إلا أنهم لا يقدرون على كبح خيالاتي، فأطلقت لها العِنان وأصبحت أتخيل وجوههم الباردة كبرودة الممر الذي لا يريد أن ينتهي. أعينهما جامدة، كما حال ملامحهما، لم يصدرا أي صوت، كآلات تنفذ ما يقال لها، من غير عقل ولا قلب، لولا كلامهما أحيانا وتدخينهما، لجزمتُ أنهما مجرد آلات. ارتسمت على وجهي بسمة لم أعرف مصدرها، في تلك اللحظة خُيل إليَّ أنهما ينظران إلى ابتسامتي وأعينهما تتقدُ شررا، حتى أحسست بحرارتها. لم أبالِ بها، وحافظت على ابتسامتي، وأنا متيقنٌ أنني لا زلت أرعبهم رغم مرور السنوات التي لم تزدني إلا مناعة ضد أفكارهم.

انتهى الممر، أو هكذا توقعت حينما شعرت بهواء بارد يداعب وجهي للمرة الأولى منذ سنوات. لا بُدَّ أننا في الساحة الكبيرة المخصصة للإعدام، لا أتوقع فيها شيئا سوى مشنقة شاحبة، وضابط بزيه الرسمي متشوق لرؤية العرض. أشعر أن الجو غائم منذر بسقوط المطر، فالقبر الذي مكثت فيه لم يستطع برطوبته ورائحته أبدًا أن يمحو رائحة هواء الشتاء من أنفي. صعدت الدرجات الثلاث والهواء الذي لطالما حُرمت منه يدخل بخفة إلى رئتي، معلنًا بطريقته الخاصة ورغم أنف الجلادين أنني وأخيرًا تحررت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

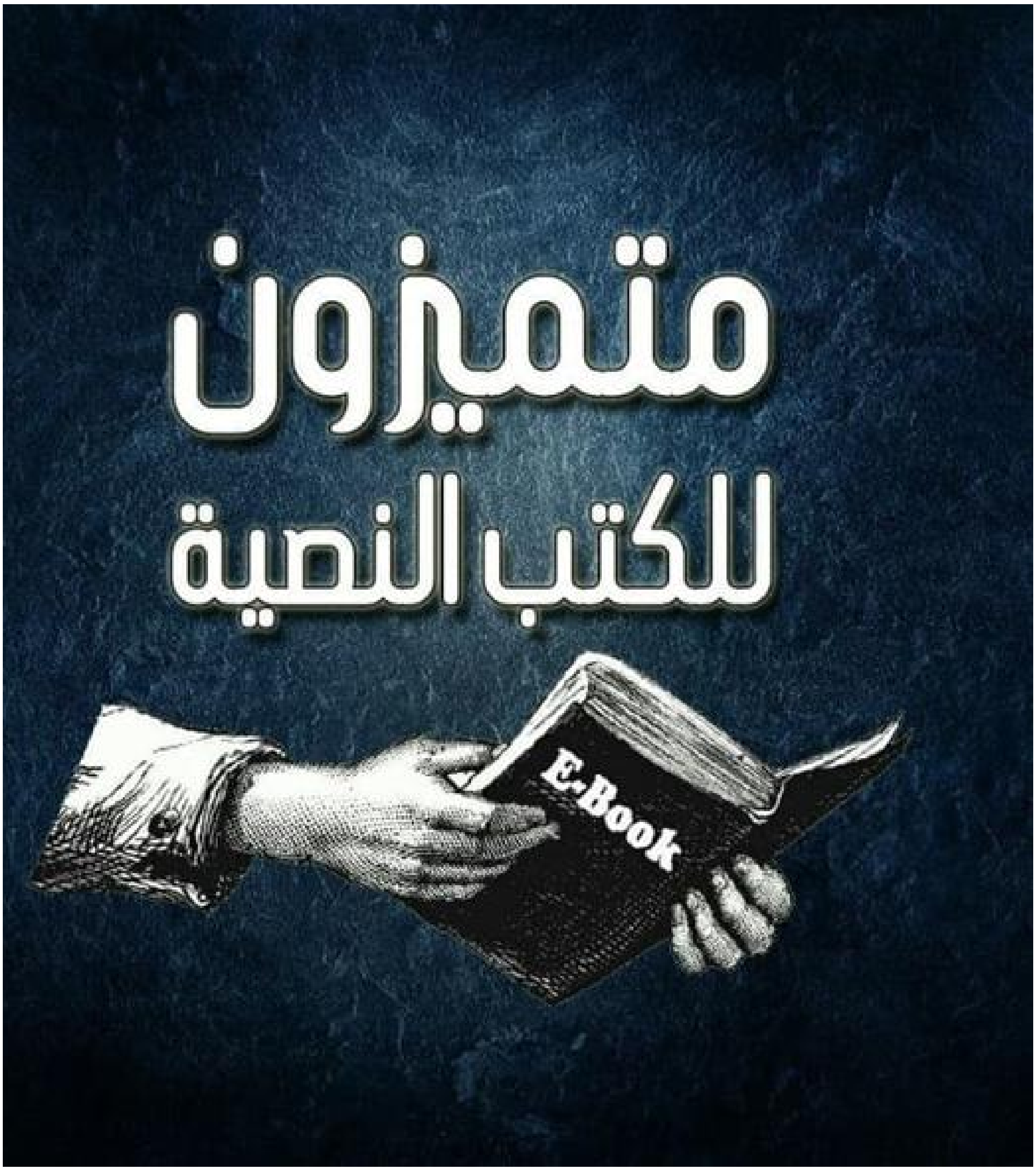
متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

إهداء

إهداء خاص

الفرصة

ليلة بطعم البنفسج

(٢)

(٣)

أوهن من بيت العنكبوت

التدوينة

الغرفة ٦٦

(٢)

(٣)

متجر الألعاب

لقاء بلا موعد

العودة

الخطيئة الأولى

السمفونية

صوفيا

(٢)

الوأدُ الصّارخ

إذا الأحلام قتلت

ليلة التخرج

(٢)

(٣)

تلك الحياة

الـمُخبر

[الموعد]

[الباب]

[(٢)]

[(٣)]

[(٤)]

[الغريب]

[القلادة المفقودة]

[ولادة جديدة]

[(٢)]

[(٣)]

[الليلة الأخيرة]